كريستوفر مورلـــي

المكتبة المتنقلة

روايــة

ترجمة: إينـاس التركـي





مكتبة

كريستوفر مورلي

المكتبة المتنقلة

رواية

ترجمتها عن الإنجليزية

إيناس التركي



الكرمة

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmab
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٤
دار الكرمة ٢٠٢٤

مورلي، كريستوفر.
المكتبة المتنقلة: رواية / كريستوفر مورلي؛ ترجمتها عن الإنجليزية إيناس التركي
القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤
تدمك: 9789778678383
١- القصص االأمريكية.
أ- التركي، إيناس (مترجمة).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٤٠٩ / ٢٠٢٣

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

إلى هـ. ب. ف، وهـ. ف. م. «أهل للثقة، داكِنا البشرة، مُفعمان بالحياة، ومُخلصان».

رسالة إلى ديفيد جريسون، المحترم، من هيمبفيلد، الولايات المتحدة الأمريكية.

سيدي العزيز،

على الرغم من أن اسمي يظهر على صفحة العنوان، فإن المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب هو الآنسة هيلين ماكجيل (أصبحت الآن السيدة روجر ميفلين)، التي قصَّت عليَّ الحكاية بحيويتها التي لا تُضاهى. وبالنيابة عنها، أودُّ أن أرسل إليكَ كلمات الشكر البسيطة هذه.

لا حاجة بي إلى القول إن السيدة ميفلين ليست ماهرة في فنون التأليف؛ هذا هو أول كتاب لها، وأشك فيما إذا كانت ستكتب غيره أبدًا. لم تدرك تقريبًا، على ما أعتقد، كم تدين قصتها لكتاباتك المبهجة. كانت هناك نسخة مهترئة من كتاب «مغامرات في القناعة» على طاولتها في مزرعة سابين، وقد رأيتُها تلتقطه بعد يوم طويل في المطبخ، وتقرأ بضحكات خافتة، وتقول إن حكايتك أنتَ

وهارييت تذكِّرها بنفسها هي وأندرو. اعتادت أن تتمتم شيئًا ما عن «مغامرات في السخط»، وتسأل لماذا لم يُروَ جانب هارييت من الأمر على الإطلاق؟ لذا، عندما وقعتْ مغامرتها الخاصة، أحسَّت بالرغبة في تدوينها على الورق. أعتقد أنها تبنَّت لاشعوريًّا شيئًا من الأسلوب والموضوع الذي اتخذته لنفسك تمامًا.

من المؤكد، يا سيدي، أنك لن تتنكر لمثل هذه التحية البريئة! على أي حال، ستجد الآنسة هارييت جرايسون، التي لطالما أُعجبنا بصفاتها الرائعة، روحًا شقيقة في السيدة ميفلين.

كانت السيدة ميفلين ستقول هذا بنفسها، بوضوح حديثها المعتاد، لو لم تكن بعيدة من ناشريها وعن الورق الفولسكاب. هي والبروفيسور في مكتبتهما المتنقلة، في مكان ما على الطرق الرئيسية، منغمسان بسعادة في أكثر تسلية صالحة معروفة للإنسان، وهي بيع الكتب. وسأغامر بالاعتقاد بأنه لا توجد أي كتب يسعدهما التوصية بها، أكثر من الكتب المفيدة والمحفزة التي تحمل اسمك.

صدِّقني، يا عزيزي السيد جرايسون، مع تحياتي الحارة.

المخلص لك، **كريستوفر مورلي.**

الفصل الأول

أتساءل عمَّا إذا كان هناك كثير من الهراء، فيما يتعلق بالتعليم العالي. لم أجد قَطُّ أن الأشخاص الذين على علم باللوغاريتمات وأنواع الشعر الأخرى، هم أسرع في غسيل الأطباق أو رتق الجوارب. لقد قرأتُ كثيرًا حينما كان ذلك باستطاعتي، ولا أريد «الاعتراف بمعوِّقات» تقف في وجه محبة الكتب، لكنني أيضًا رأيتُ كثيرًا من الأشخاص الطيبين العمليين، الذين أفسدتهم كثرة القراءة. كما أن قراءة السونيتات دومًا ما تصيبني بالفواق.

لم أتوقع أن أصبح كاتبة قَطُّ! لكنني أعتقد أن هناك بعض الأشياء المسلية في حكايتي أنا وأندرو، وكيف قوَّضت الكتب حياتنا الهادئة. عندما اقترض جون جوتنبرج، الذي كان اسمه الحقيقي (على حد قول البروفيسور)

جون جوسفليش، ذلك المال لتأسيس مطبعته، أطلق على العالم الكثير من المتاعب.

كنَّا أنا وأندرو سعيدين على نحوٍ رائع في المزرعة، حتى أصبح مؤلفًا. لو استطعت توقع كل الإزعاج الذي ستسببه لنا كتاباته، لأحرقت بالتأكيد أول مخطوطة في موقد المطبخ.

أندرو ماكجيل، مؤلف تلك الكتب التي يقرأها الجميع، هو شقيقي. بعبارة أخرى، أنا شقيقته، وأصغره بعشر سنوات. قبل سنوات، كان أندرو رجل أعمال، لكن صحته تدهورت، ومثل عديد من الأشخاص في كتب الحكايات، فرَّ إلى الريف، أو كما أسماه، «حضن الطبيعة». كنَّا أنا وهو الوحيدَين المتبقيَين من أسرة تفتقر إلى النجاح. كنت أذوي على مهل من خلال عملي مربية ذات ضمير يقظ، في مناطق نيويورك التي بها منازل بواجهات من الحجر الرملي الأسمر. أنقذني من ذلك، واشترينا مزرعة بمجموع مدخراتنا. أصبحنا مزارعَين حقيقيَّين، نستيقظ مع الشمس، ونأوي إلى الفراش مع غروبها. ارتدى أندرو بدلة عمل وقميصًا ناعمًا، وأصبح أسمر وقويًّا، وباتت يداي حمراوين وزرقاوين من أثر رغوة الصابون والصقيع. لم أشاهد مطلقًا أي إعلان لدار أزياء «ريدفيرن» من نهاية عام

إلى آخر، وكان مطبخي ساحة معركة، حيث عقدت العزم وتعلمت حب العمل الشاق. اقتصر ما نقرأه من أدب على التقارير الزراعية الحكومية، وروزنامات الأدوية المسجلة ببراءة اختراع، وكتيبات تجار البذور، وقوائم سلسلة متاجر «سيرز روبوك». اشتركنا في مجلة «فارم أند فايرسايد»، وقرأنا الحلقات المسلسلة بصوت عالٍ. بين حين وآخر، في سبيل الإثارة الحقيقية، كنَّا نقرأ شيئًا مثيرًا من العهد القديم، مثل سِفر إرميا المبهج على سبيل المثال، الذي كان أندرو مولعًا به للغاية. لقد ازدهرت المزرعة بالفعل بعد مدة، وصار أندرو يجلس على قضبان السياج المحيط بالمراعي عند غروب الشمس، ويخمن من طريقة اشتعال غليونه كيف سيكون الطقس في اليوم التالي.

كما قلت، كنَّا سعيدَين للغاية، حتى خطرت لأندرو تلك الفكرة المميتة بإخبار العالم عن مدى سعادتنا. يؤسفني الاضطرار إلى الاعتراف بأنه لطالما كان رجلًا يحب الاطلاع إلى حدٍّ ما. كان يحرر المجلة الطلابية أيام دراسته الجامعية، وأحيانًا كان يشعر بالاستياء من الحلقات المسلسلة في مجلة «فارم أند فايرسايد»، فيسحب أعداده المجلدة من صحيفة الجامعة. كان يقرأ لي بعض القصائد والقصص من شبابه، ويهمهم على نحو غامض عن كتابة

شيء ما بنفسه ذات يوم. انصبَّ اهتمامي على الدجاجات الراقدة على البيض، أكثر منه على السونيتات، ولا بد لي من القول إنني لم آخذ هذه التهديدات على محمل الجد قَطُّ. كان يجب أن أكون أشد صرامة.

بعد ذلك، تُوفِّي فيليب، عم والدنا، وجاءتنا سيارة محمَّلة بكتبه. عمل أستاذًا جامعيًّا، وقبل سنوات، حينما كان أندرو صبيًّا، كان العم فيليب مغرمًا به، بل إنه في الواقع تولى الإنفاق على دراسته الجامعية. كنَّا القريبَين الوحيدَين، فوصلت إلينا تلك الكتب ذات يوم. كانت تلك بداية النهاية، لكنني لم أعرف ذلك. استمتع أندرو بوقته بشدة، وهو يبني الأرفف في جميع أرجاء غرفة معيشتنا، ولم يكتفِ بذلك، بل حوَّل قن الدجاج القديم إلى غرفة مكتب لنفسه، ووضع به موقدًا، واعتاد السهر هناك بعد أن آوي إلى الفراش. ثم سرعان ما أطلق على المكان اسم «مزرعة سابين»، (على الرغم من أنه ظل معروفًا لسنوات باسم «بوج هولو»)، لأنه اعتقد أن ذلك الفعل له دلالة أدبية. اعتاد أن يأخذ معه كتابًا عندما يقود العربة إلى ريدفيلد لجلب المؤن، وفي بعض الأحيان كانت العربة تتأخر ساعتين عند العودة إلى المنزل، وبِن العجوز يتسكع بين عمودَي العربة، بينما أندرو سارح في كتابه.

لم يعجبني ذلك كثيرًا، لكنني امرأة مهادنة، وما دام أندرو يدير أمور المزرعة، فقد كان لديَّ كثير مما يتعين عليَّ إنجازه بنفسي. الخبز الساخن، والقهوة، والبيض، والمربى للإفطار، والحساء، واللحوم الساخنة، والخضراوات، والفطائر، وصلصة اللحم، والخبز البني والخبز الأبيض، و«بودينج» التوت، وكعكة الشوكولاتة، والحليب الرائب للغداء، و«المافن»، والشاي، ولفائف النقانق، والتوت الأسود، والقشدة، والدونات للعشاء. كانت هذه أنواع الطعام التي أعددتها ثلاث مرات يوميًّا لسنوات. فلم يكن لديَّ أي وقت للقلق بشأن ما لا يخصني.

وفي صباح أحد الأيام، ضبطتُ أندرو يُعِدُّ طردًا كبيرًا مسطحًا لساعي البريد. بدا عليه الخجل الشديد، لذا كان عليَّ أن أسأله عمَّا يكون.

قال أندرو:

– لقد أَلَّفتُ كتابًا.

وأطلعني على صفحة العنوان:

الفردوس المُستعاد
تأليف
أندرو ماكجيل

حينها لم أشعر بالقلق كثيرًا، لأنني كنت أعرف بالتأكيد أن أحدًا لن يطبعه. لكن يا إلهي! بعد شهر أو نحو ذلك، جاءت رسالة من ناشر بقبوله! تلك هي الرسالة التي يحتفظ بها أندرو في إطار فوق مكتبه. لتوضيح كيف تبدو الرسالة فحسب، سأنسخها هنا:

ديكا ميرون، جونز، وشركاه
ناشرون
ميدان يونيون، نيويورك
١٣ يناير ١٩٠٧

عزيزي السيد ماكجيل،

لقد قرأنا بسرور بالغ مخطوطتك «الفردوس المُستعاد»، وليس هناك شك في أذهاننا أن مثل هذا السرد المفعم بالحيوية عن مباهج الحياة الريفية الصحية سوف يلقى استحسانًا شعبيًّا، وباستثناء بعض المراجعات والاختصارات، سيسعدنا نشر الكتاب كما هو تقريبًا. نود أن يتولى السيد تورتوني، الذي قد تكون شاهدت بعض أعماله، تزويد الكتاب بالرسوم، وسوف تسعدنا معرفة ما إذا كان يمكنه زيارتك كي يتعرف على الطابع المحلي لمنطقتك السكنية.

يسرنا أن ندفع لك حقوق تأليف بنسبة عشرة في المائة من سعر التجزئة للكتاب، ونرفق نُسخًا مكررة من العقود لتوقيعك في حال ما إذا ثبت أن هذا مُرضٍ بالنسبة إليك.

المخلص لك، إلخ إلخ.

ديكاميرون، جونز، وشركاه

منذ ذلك الحين، اعتقدتُ أن «الفردوس المفقود» كان سيصبح عنوانًا أفضل لذلك الكتاب. نُشر في خريف عام ١٩٠٧، ومنذ ذلك الوقت لم تعُد حياتنا كما كانت على الإطلاق. لسوء الطالع، أصبح الكتاب حديث الموسم، وأُشيد به على نطاق واسع، بوصفه «دليلًا للصحة الجسدية والعقلية». وتلقَّى أندرو مع كل بريد وارد تقريبًا عروضًا من الناشرين ومحرري المجلات الذين أرادوا الحصول على كتابه التالي. يكاد يكون من المستحيل تصديق مدى انحطاط الحيل التي يلجأ إليها الناشرون للتأثير في كاتب ما. كتب أندرو في «الفردوس المُستعاد» عن المتشردين الذين يزوروننا، وعن مدى طرافة وجاذبية بعضهم، (دعني أُضِف، ومدى قذارتهم)، وكيف أننا لا نصرف أبدًا أي شخص يبدو جديرًا بذلك. هل تصدق أنه في الربيع التالي لنشر الكتاب، ظهر ذات يوم متشرد زريُّ الهيئة بحوزته حقيبة ظهر، تملَّق أندرو

بشأن كتابه، وقضى الليلة لدينا، وأعلن عن هويته في أثناء الإفطار بوصفه ناشرًا بارزًا في نيويورك؟ اختار هذه الخدعة كي يتعرف على أندرو.

لك أن تتخيل أن أندرو لم يستغرق كثيرًا من الوقت حتى بات مدللًا بهذا الأسلوب! في العام التالي، اختفى فجأة، لم يترك سوى رسالة موجزة على طاولة المطبخ، وتسكع في جميع أنحاء الولاية مدة ستة أسابيع، لجمع المادة اللازمة لكتاب جديد. تمكنت بالكاد من منعه من الذهاب إلى نيويورك للتحدث إلى المحررين والأشخاص الذين هم على تلك الشاكلة. كانت تصل إليه مظاريف مليئة بقصاصات من الصحف، فينكب على قراءتها في حين كان تجب عليه حراثة الذرة. لحسن الحظ، يأتي ساعي البريد في منتصف الصباح تقريبًا، عندما يكون أندرو في الحقول بالخارج، لذا كنت أطالع الرسائل قبل أن يراها. بعد نشر الكتاب الثاني (كان عنوانه «السعادة والعُصافة»)، ازدادت كثافة الرسائل الواردة من الناشرين، لدرجة أنني كنت ألقي بها جميعًا في الموقد قبل أن يراها أندرو، باستثناء الرسائل الواردة من العاملين لدى دار نشر ديكاميرون جونز، التي كانت تحوي شيكات مصرفية في بعض الأحيان. كان المنشغلون بالأدب يأتون بين

حين وآخر لإجراء مقابلات مع أندرو، لكنني عمومًا تمكنت من صدهم.

لكن أندرو بات مزارعًا بدرجة أقل كثيرًا، وأديبًا بدرجة كبيرة جدًّا، اشترى آلة كاتبة، وصار يجلس متدلِّيًا من فوق حظيرة الخنازير، يدوِّن صفات لغروب الشمس، بدلًا من إصلاح دوارة الريح على الحظيرة التي انحرفت حتى أصبحت الريح الشمالية تأتي من جهة الجنوب الغربي. نادرًا ما يطالع قوائم «سيرز روبوك»، وبعد أن أتى السيد ديكاميرون لزيارتنا، واقترح أن يؤلف أندرو كتابًا من القصائد عن الريف، أصبح الرجل ببساطة لا يطاق.

وطوال ذلك الوقت، كنت أحصي البيض، وأعد ثلاث وجبات في اليوم، وأدير المزرعة، في حين أُصيب أندرو بلوثة أدبية، فكان ينطلق في رحلة ما من رحلات التشرد لجمع المغامرات من أجل كتاب جديد. (ليتك رأيت الحالة التي بدا عليها عند عودته من تلك الرحلات، وهو يتسكع عبر الطرقات من دون أي نقود أو جورب نظيف بحوزته. في إحدى المرات، عاد مصابًا بسعال كان بوسعك سماعه من الجانب الآخر للحظيرة، واضطررت إلى تمريضه ثلاثة أسابيع). عندما ألَّف شخص ما كتيبًا صغيرًا عن «حكيم ريدفيلد»، ووصفني

بأنني «زنتيب الريفية»، و«عجلة الاتزان المنزلية التي تُبقي الكاتب العظيم قريبًا من حقائق الحياة البسيطة»، عقدت العزم على أن أذيق أندرو من كأسه نفسها، وهذه هي حكايتي.

الفصل الثاني

كان صباحًا خريفيًّا جميلًا ومنعشًا - في أكتوبر على ما أعتقد - وأنا في المطبخ أنزع البذور من التفاح لإعداد صلصة التفاح. كنَّا سنتناول لحم الخنزير المشوي على العشاء، مع البطاطس المسلوقة، وما يسميه أندرو مرق «فاندايك» البني. كان أندرو قد توجه بالعربة إلى البلدة لجلب بعض الطحين والعلف، ولن يعود حتى وقت الظهيرة.

بما أنه كان يوم الاثنين، فقد حضرت السيدة ماكنالي، الغسالة، لتتولى الغسيل. أذكر أنني كنت خارجة للتوِّ في طريقي إلى كومة الحطب لجلب بضعة أعواد من خشب «البتولا»، عندما سمعت عجلات تدور عند البوابة. كان هناك واحد من أسمن الخيول البيضاء التي رأيتها على الإطلاق، وعربة غريبة على شكل شاحنة. مال رجل ضئيل

إلى الأمام في المقعد، غريب الهيئة، ذو لحية صهباء، وقال شيئًا لم أتبيَّنه، إذ كنت أراقب عربته العجيبة تلك.

طُليتْ بلون أزرق باهت مثل بيض طائر أبي الحناء، وكُتِب على جانبها بأحرف قرمزية كبيرة:

مكتبة ر. ميفلين المتنقلة
كتب جيدة للبيع
شكسبير، تشارلز لام، روبرت لويس ستيفنسون، هازليت، وجميع الآخرين

على حمالات أسفل العربة، تدلَّى ما بدا أشبه بخيمة، جنبًا إلى جنب مع فانوس ودلو وأشياء صغيرة أخرى. كان للعربة كوة عالية على السطح، تشبه عربة قطار عتيقة الطراز، وارتفعت من أحد أركانها ماسورة للموقد. في الخلف يوجد باب، بنوافذ صغيرة على كل جانب، تؤدي إليه مجموعة من درجات السلم. مكتبة سُر مَن قرأ

بينما وقفت أتأمل هذه العربة الغريبة، نزل الرجل الضئيل الضارب إلى الحمرة من مقدمتها، ووقف يراقبني. بدا وجهه مزيجًا كوميديًّا من الهزل اللطيف ونوعًا من التهكم، ظهرت عليه آثار العوامل الجوية. كانت لديه لحية صهباء صغيرة أنيقة، ويرتدي سترة رثَّة فضفاضة من قماش «التويد»، لها حزام، وكان أصلع الرأس تمامًا.

قال:

– هل هذا هو محل سكن أندرو ماكجيل؟

اعترفت بذلك.

أضفت قائلة:

– لكنه غائب حتى الظهيرة. سوف يعود حينها. هناك لحم خنزير مشوي على العشاء.

قال الرجل الضئيل:

– وصلصة التفاح؟

قلت:

– صلصة التفاح، والمرق البني. لهذا فأنا متأكدة أنه سيعود إلى المنزل في الوقت المحدد. أحيانًا ما يتأخر حينما يكون طعام العشاء مسلوقًا، لكنه لا يتأخر أبدًا في الأيام التي نتناول فيها لحم الخنزير المشوي. لن يصلح أندرو أبدًا للعمل حاخامًا.

انتابني شك مفاجئ.

صحت قائلة:

– أنت لست ناشرًا آخر، أليس كذلك؟ ماذا تريد من أندرو؟

لوَّح الرجل الضئيل بيده نحو كلٍّ من العربة والحصان الأبيض معًا، وقال:

- كنت أتساءل عمَّا إذا كان يرغب في شراء كل هذه التجهيزات.

وبينما هو يتحدث، فكَّ خطافًا في مكان ما، ورفع جانب عربته بالكامل مثل السديلة. أصدرت سقاطة من نوع ما تكة، وظلَّت السديلة مرفوعة كالسقف، كاشفة عن لا شيء سوى الكتب، صفوف وصفوف منها. لم يكن جانب عربته سوى خزانة كتب كبيرة. تراصت أرفف فوق أرفف، وجميعها مليئة بالكتب، القديمة والجديدة معًا. بينما وقفت أحدق، أخرج بطاقة مطبوعة من مكان ما، وناولني إياها:

مكتبة روجر ميفلين المتنقلة

تحمل عربتي، يا أصدقائي الأفاضل،
كتبًا عديدة، قديمة وجديدة.
الكتب، أصدق أصدقاء الإنسان،
تملأ في هذه العربة، كل مكان.
كتب تفي بجميع الغايات،
كلمات ذهبية من إلهام الربات.
كتب عن الطهي والمعلومات الزراعية،
وروايات ساحرة وعاطفية.
كل الأنواع، لكل الاحتياجات

حتى يقرأ مَن يقتني المشتريات.
أي أمين مكتبة يمكن أن يتفوق علينا؟

مكتبة ميفلين المتنقلة
بقلم ر. ميفلين، المالك
مطبعة ستار جوب، سيليريفيل، فيرجينيا

بينما شرعت أضحك على هذا، رفع سديلة مماثلة على الجانب الآخر من العربة، كشفت عن مزيد من الأرفف المحملة بالكتب.

أخشى أنني عملية للغاية بطبيعتي.

قلت:

- حسنًا! أعتقد أنك تحتاج بالفعل إلى حصان قوي للغاية لسحب هذا الحمل. لا بد أنها تزن أكثر من عربة فحم.

قال:

- أوه، تستطيع بيج تدبر أمرها على ما يرام. نحن لا نسير بسرعة كبيرة. لكن انظري هنا، فأنا أريد بيع كل ما أملك. هل تعتقدين أن زوجكِ سيشتري كل التجهيزات، المكتبة المتنقلة، وبيجاسوس، وكل شيء؟ إنه مغرم بالكتب، أليس كذلك؟

قلت:

- انتظِر لحظة! إن أندرو شقيقي، وليس زوجي، وعلى العموم، فهو مغرم بالكتب إلى درجة زائدة على الحد. سرعان ما ستصبح الكتب سبب خراب هذه المزرعة. إنه يضيع الوقت سارحًا بسبب كتبه في معظم الأحيان تقريبًا، كالدجاجة الراقدة على البيض، في حين يتعين عليه إصلاح عدة الحصان. يا إلهي، إذا شاهد حمولة عربتك هذه، فسيظل مضطربًا لمدة أسبوع. أضطر إلى إيقاف ساعي البريد في الطريق، وإخراج جميع قوائم الناشرين من البريد حتى لا يراها أندرو. يمكنني أن أؤكد لك أنني سعيدة للغاية لأنه ليس هنا الآن!

ليست لديَّ ميول أدبية، كما سبق وأن ذكرت، لكن طبيعتي الإنسانية كافية كي أشعر بالميل إلى الكتاب الجيد، وأخذت عيناي تجريان عبر أرففه تلك خلال حديثي. كانت لديه بالتأكيد مجموعة متنوعة للغاية. لاحظت وجود الشِّعر، والمقالات، والروايات، وكتب الطبخ، وكتب الناشئة، والكتب المدرسية، والأناجيل، وما شابه ذلك، كلها مختلطة معًا.

قال الرجل الضئيل:

- حسنًا، انظري هنا.

ولاحظت حينها تقريبًا أن عينيه تلتمعان كشخص مفرط الحماس.

- لقد تجولت بهذه المكتبة المتنقلة لمدة سبع سنوات. غطيت المنطقة من فلوريدا إلى ماين، وأعتقد أنني نشرت الأدب الجيد في الريف بالقدر نفسه مثل الدكتور إليوت العجوز، برف كتبه الذي يبلغ ارتفاعه خمس أقدام[1]. أريد تصفية ممتلكاتي الآن. سوف أؤلف كتابًا عن «الأدب بين المزارعين»، وأرغب في الاستقرار مع شقيقي في بروكلين لكتابته. لديَّ حقيبة مليئة بالملاحظات من أجل الكتاب. أعتقد أنني سأبقى حتى يعود السيد ماكجيل إلى المنزل، لأرى ما إذا كان سيشتري مني كل شيء. سأبيع كل هذا برمته، الحصان، والعربة، والكتب، مقابل أربعمائة دولار. قرأت كتابات أندرو ماكجيل، وأعتقد أن هذا الاقتراح سيثير اهتمامه. لقد استمتعت بهذه المكتبة المتنقلة أكثر من برميل من القرود. عملت معلمًا في مدرسة، حتى انهارت

---

(١) الدكتور تشارلز و. إليوت هو رئيس جامعة هارفارد، أشرف على إصدار سلسلة كلاسيكيات هارفارد المؤلفة من خمسين مجلدًا التي صدرت في البداية تحت عنوان «رف كتب الدكتور إليوت البالغ ارتفاعه خمس أقدام»، وتحوي السلسلة كلاسيكيات الأدب العالمي، والخطابات المهمة، والوثائق التاريخية. (المترجم).

صحتي، ثم عملت في هذا الأمر، وجنيت أرباحًا أكثر من النفقات، واستمتعت بشدة.

قلت:

- حسنًا، يا سيد ميفلين، إذا كنت تريد البقاء في الجوار، فأعتقد أنني لا أستطيع منعك. لكنني أشعر بالأسف لأنك أتيت من هذا الطريق، أنت ومكتبتك المتنقلة القديمة.

استدرت على عقبيَّ، وعدت إلى المطبخ. كنت أعلم جيدًا أن أندرو سيتردد في اتخاذ القرار عندما يرى تلك العربة المليئة بالكتب، وإحدى تلك البطاقات المجنونة المدوَّن عليها شِعر السيد ميفلين.

عليَّ الاعتراف بأنني شعرت بالاستياء البالغ. إن أندرو غير عملي، وغير واقعي تمامًا كفتاة صغيرة، ودومًا ما يحلم بمغامرات جديدة وجولات في أنحاء البلاد. إذا حدث أن رأى تلك المكتبة المتنقلة، فسوف يُعجب بها على الفور. كما كنت أعلم أن السيد ديكاميرون يلاحقه من أجل كتاب جديد على أي حال. (اعترضت إحدى رسائله منذ عدة أسابيع مضت، يقترح فيها رحلة أخرى مثل تلك التي سبقت كتاب «السعادة والعُصافة». كان أندرو غائبًا عند وصول الرسالة، ساورتني شكوك بشأن محتواها،

لذلك فتحتها وقرأتها، و... حسنًا، أحرقتها. يا للسماء! كما لو أن أندرو ليس لديه ما يكفي من المشاغل، من دون التسكع مثل العامل المتجول عبر الطرقات، كي يؤلف عنها كتابًا فحسب).

بينما انشغلت بالعمل في المطبخ، كان بوسعي رؤية السيد ميفلين وهو يتصرف كما لو أنه في منزله. فك حصانه من العربة، وربطه بالسياج، وجلس بجانب كومة الحطب وأشعل غليونه. رأيت أنني سأتورط في الأمر. بمرور الوقت، لم أعد أستطيع التحمل أكثر من ذلك. خرجت للتحدث مع ذلك البائع المتجول أصلع الرأس.

قلت:

- انظر هنا، أنت في غاية البرود لكونك أخذت راحتك إلى هذا الحد في فنائي. أقول لك إنني لا أريدك هنا، لا أنت ولا عربتك المتنقلة. ما رأيك أن ترحل من هنا قبل عودة شقيقي، وألّا تفرق شمل أسرتنا السعيدة؟

قال الرجل:

- آنسة ماكجيل.

(كان للرجل أسلوب لطيف أيضًا - تبًّا له - بعينيه اللامعتين المتألقتين، ولحيته الصغيرة السخيفة).

- أنا متأكد أنني لا أريد أن أكون فظًّا. إذا أبعدتني من هنا، فسأرحل بالطبع، لكنني أحذركِ من أنني سوف أنتظر السيد ماكجيل عند نهاية هذا الطريق فحسب. أنا موجود هنا لبيع هذه القافلة الثقافية، وقسمًا بروح سوينبيرن، أعتقد أن شقيقكِ هو الرجل المناسب لشرائها.

غلت الدماء في عروقي الآن، وسأعترف أنني تفوهت بعبارتي التالية من دون تروٍّ كما يجب.

قلت:

- بدلًا من جعل أندرو يشتري عربتك القديمة، سأشتريها بنفسي. سأدفع لك ثلاثمائة دولار مقابلًا لها.

أشرق وجه الرجل الضئيل. لم يقبل أو يرفض عرضي. (خفت حد الموت من أن يقبل عرضي على الفور، ويضيع فجأةً ما ادخرته خلال ثلاث سنوات لشراء سيارة فورد).

قال:

- تعالي وألقي عليها نظرة أخرى.

عليَّ الاعتراف بأن السيد روجر ميفلين جهز عربته على نحو مريح للغاية من الداخل. بُني جسم العربة على نحو ممتد إلى الخارج فوق العجلات من كِلا الجانبَين، ما منحها مظهرًا ضخمًا، لكنه أتاح مساحة إضافية لأرفف

الكتب. ترك هذا مساحة داخلية بعرض خمس أقدام، وطول تسع أقدام. كان لديه في أحد الجوانب موقد زيت صغير، وطاولة قابلة للطي، وفراش له مظهر مريح، بُنيت فوقه خزانة أدراج من نوع ما، لتخزين الملابس وأشياء من هذا القبيل، على ما أعتقد. على الجانب الآخر، كان هناك مزيد من أرفف الكتب، وطاولة صغيرة، وكرسي صغير من الخيزران. بدا أن كل بوصة متاحة من المساحة استُغلت بصورة مفيدة بطريقة ما، كرفٍّ، أو خطاف، أو خزانة معلقة، أو شيء ما. تراصَّ فوق الموقد صف صغير منتظم من القدور والأطباق وأدوات الطهي. بالكاد أتاحت كوة السقف المرتفعة الوقوف بشكل مستقيم، في ممر العربة الأوسط، كما كانت هناك نافذة صغيرة منزلقة تطل على مقعد السائق في الأمام. في المجمل، بدت أنيقة للغاية. غطت الستائر النوافذ الأمامية والخلفية، واستقر أصيص من زهور «الجارونيا» على رف صغير. وجدت الأمر مسليًا عند رؤية كلب أشقر من فصيلة الترير الأيرلندي متكورًا فوق بطانية مكسيكية زاهية على الفراش.

قال:

- آنسة ماكجيل، لا يمكنني بيع العربة بأقل من أربعمائة

دولار. لقد استثمرت فيها قدر ذلك مرتين، المرة تلو المرة. لقد بُنيت بأكملها على نحو أنيق ومتين، وبها كل ما قد يحتاج إليه المرء من البطاطين إلى مكعبات المرقة. العربة بأكملها لكِ مقابل أربعمائة دولار - بما في ذلك الكلب، والموقد، وكل شيء - من الألف إلى الياء. توجد خيمة في حامل بالأسفل، وبراد.

رفع بابًا صغيرًا خفيًّا أسفل الفراش، وأكمل قائلًا:

- وخزان مليء بزيت الفحم، والرب وحده يعلم ماذا أيضًا. إنها تضاهي اليخت في قيمتها، لكنني سئمتها. إذا كنتِ خائفة إلى هذا الحد من أن تحوز إعجاب شقيقكِ، فلماذا لا تشترينها بنفسكِ، وتستمتعين بها؟ اجعليه هو يبقى في المنزل، ويتولى إدارة المزرعة! سأخبركِ بما سأفعله. سوف أساعدكِ بنفسي في الانطلاق على الطريق، وسآتي معكِ في اليوم الأول لأريكِ كيف تسير الأمور. يمكنكِ الاستمتاع بشدة في هذه العربة، ومنح نفسكِ إجازة رائعة. سيفاجئ ذلك شقيقكِ بدرجة كبيرة أيضًا. لمَ لا؟

لا أعرف ما إذا كان ذلك بسبب أناقة عربته الصغيرة الغريبة، أو جنون الاقتراح برمته، أو مجرد الرغبة في خوض مغامرة خاصة بي وعمل مقلب في أندرو، لكن

على أي حال، استحوذت عليَّ رغبة ملحة غير عادية، وانفجرت في الضحك.

قلت:

- حسنًا! سأفعل ذلك.

أنا، هيلين ماكجيل، في التاسعة والثلاثين من عمري!

الفصل الثالث

فكرت: «حسنًا، إذا كنت سأخوض مغامرة، فيجدر بي أن أُسرِع في الأمر. سيعود أندرو إلى المنزل بحلول الثانية عشرة والنصف، وإذا أردت الهرب منه، فمن الأفضل أن أبدأ. أعتقد أنه سيظن أنني جُننت! سوف يتبعني، على ما أعتقد. حسنًا، لن يتمكن من اللحاق بي، هذا هو كل ما في الأمر!». استولى عليَّ نوع من الغضب عند التفكير أنني عشت في تلك المزرعة منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا - أجل، يا سيدي، منذ أن كنت في الخامسة والعشرين من عمري - ولم أبتعد عنها على الإطلاق تقريبًا، باستثناء تلك الرحلة إلى بوسطن مرة واحدة سنويًّا، للتسوق مع ابن عمي إيدي. أعتقد أنني أميل إلى البقاء في المنزل، وأحب مطبخي، وخزانة أطعمتي المحفوظة، وخزانة مفروشاتي، مثلما كانت جدتي تمامًا، لكن شيئًا ما في سماء أكتوبر

الزرقاء تلك، وذلك الرجل الضئيل المجنون ذو اللحية الصهباء دغدغ مشاعري فحسب.

قلت:

- انظر هنا يا سيد عربة، أعتقد أنني عجوز حمقاء بدينة، لكنني سأُقدِم على ذلك فحسب، على ما أظن. شد حصانك إلى العربة، وسأذهب لأحزم بعض الملابس وأكتب لك شيكًا مصرفيًّا. سيكون اختفائي مفيدًا جدًّا لأندرو. كما ستتاح لي الفرصة لقراءة بعض الكتب أيضًا. سيكون ذلك مفيدًا كالذهاب إلى الجامعة!

حللت مئزري، وهُرعت نحو المنزل. وقف الرجل الضئيل متكئًا على ركن العربة، كما لو أنه مصاب بالذهول. وأظن أنه كان كذلك بالفعل.

دخلت المنزل مسرعة عبر الباب الأمامي، ووجدت الأمر مضحكًا عندما رأيت نسخة من إحدى مجلات أندرو ملقاة على طاولة غرفة المعيشة، مطبوعًا عليها بأحرف حمراء:

ثورة النسوية.

فكرت: «ها هي ثورة هيلين ماكجيل». جلست إلى مكتب أندرو، ودفعت جانبًا دفتر ملاحظات كان يدوِّن فيه عن «سحر الخريف»، وكتبت بضعة أسطر:

عزيزي أندرو،

لا تعتقد أنني أُصبت بالجنون، إذ إنني ذهبت كي أخوض مغامرة. لقد خطر لي للتوِّ أنك خضت كل المغامرات، في حين بقيت أنا في المنزل أخبز الخبز. ستعتني السيدة ماكنالي بأمر وجباتك، ويمكن أن تأتي إحدى بناتها للقيام بالأعمال المنزلية، لذا لا تقلق. سوف أتغيب لبعض الوقت - ربما لمدة شهر - لأبحث عن بعضٍ من هذه السعادة والعُصافة التي تتحدث عنها. هذا ما تسميه المجلات ثورة النسوية. توجد ملابس داخلية دافئة في صندوق خشب الأرز في الغرفة الإضافية حينما تحتاج إليها.

مع محبتي، هيلين.

تركتُ الرسالة على مكتبه.

انحنت السيدة ماكنالي فوق الأحواض بغرفة الغسيل. تمكنتُ فقط من رؤية قوس ظهرها العريض المحني، وسماع الأزيز القوي الصادر وهي تفرك الملابس. نهضتْ عندما ناديتها.

قلت:

- سيدة ماكنالي، سوف أذهب في رحلة صغيرة. يُستحسن أن تدعي الغسيل حتى عصر اليوم، وتحضِّري العشاء لأندرو. سيعود في الثانية عشرة والنصف تقريبًا،

والساعة الآن العاشرة والنصف. أخبريه أنني ذهبت إلى زيارة السيدة كولينز في مزرعة لوكوست.

السيدة ماكنالي سويدية قوية العضلات، متبلدة العقل. قالت:

- حسنًا، يا آنسة ماكجيل. هل ستعودين لتناول العشاء؟

قلت:

- لا، لن أعود لمدة شهر. أنا ذاهبة في رحلة. أريدكِ أن ترسلي روزي إلى هنا كل يوم، للقيام بالأعمال المنزلية خلال غيابي. يمكنكِ ترتيب ذلك الأمر مع السيد ماكجيل. يجب أن أُسرِع الآن.

حدقت السيدة ماكنالي عبر النافذة في حيرة، بعينيها الساذجتين اللتين مثل زرقة خزف كوبنهاجن، فوقع نظرها على المكتبة المتنقلة، والسيد ميفلين وهو يعيد بيجاسوس بين عمودَي العربة. رأيتها تبذل جهدًا باسلًا لفهم اللافتة المدهونة على جانب العربة، ثم تخلَّت عن المحاولة.

سألتني من دون اهتمام:

- هل ستذهبين في نزهة بالعربة؟

قلت:

- أجل.

وفررتُ إلى الطابق العلوي.

دومًا ما أحتفظ بدفتر شيكاتي المصرفية داخل صندوق قديم من حلوى هويلر، في الدرج العلوي من مكتبي. لا أدخر المال بسرعة، على ما أخشى. لديَّ دخل ضئيل من بعض المال الذي تركه لي والدي، لكن أندرو يتولى أمر ذلك. يدفع أندرو جميع نفقات المزرعة، لكن حسابات التدبير المنزلي تقع على عاتقي. أجني مبلغًا لا بأس به لمصروف الجيب، من خلال دواجني، وبعض الأطعمة المحفوظة التي أُرسِلها إلى بوسطن، وبعض وصفات الطهي خاصتي التي أُرسِلها إلى مجلة نسائية بين حين وآخر. لكن بصفة عامة، لا تزيد مدخراتي كثيرًا على عشرة دولارات شهريًّا. خلال السنوات الخمس الماضية، ادخرت ما يزيد على ستمائة دولار. كنت أدخر لشراء سيارة فورد. لكن الآن فقط، بدا لي أن تلك المكتبة المتنقلة ستكون أكثر متعة مما يمكن أن تكون عليه سيارة فورد على الإطلاق. كانت أربعمائة دولار مبلغًا كبيرًا من المال، لكنني فكرت فيما قد تعنيه عودة أندرو إلى المنزل وشراء العربة، إذ إنه سيتغيب حتى

عيد الشكر! لكن إذا اشتريتها أنا، فسأتمكن من أخذها بعيدًا، وخوض مغامرتي، وبيعها في مكان ما بحيث لا تكون هناك حاجة إلى أن يراها أندرو أبدًا. ربطتُ على قلبي، وعقدتُ العزم على أن أسقي حكيم ريدفيلد من كأسه نفسها.

بلغ رصيدي في مصرف ريدفيلد الوطني ٢٠, ٦١٥ دولار. جلست إلى الطاولة في غرفة نومي، حيث أحتفظ بسجل حساباتي، وكتبت شيكًا لروجر ميفلين بمبلغ أربعمائة دولار. أضفت كثيرًا من الخطوط الزخرفية الملتوية بعد الأرقام، كي لا يتمكن أحد من رفع قيمة الشيك إلى أربعمائة ألف دولار. بعد ذلك، أخرجت حقيبتي القديمة المصنوعة من «الراتان»، ووضعت بها بعض الملابس. لم يستغرق مني الأمر برمته أكثر من عشر دقائق. نزلت إلى الطابق السفلي، لأجد السيدة ماكنالي تنظر إلى العربة بحدة من باب المطبخ.

سألتْ:

– هل أنتِ ذاهبة في تلك... تلك الحافلة يا آنسة ماكجيل؟

قلت بمرح:

– أجل، يا سيدة ماكنالي.

أوحى لي استخدامها للكلمة بفكرة. تابعتُ قائلة:

- إنها واحدة من تلك الحافلات الجديدة الرخيصة التي نسمع عنها. ستوصلني إلى المحطة. لا تقلقي بشأني. أنا ذاهبة لقضاء عطلة. جهزي العشاء للسيد ماكجيل، وأخبريه بعد العشاء أن هناك رسالة له في غرفة المعيشة.

قالت السيدة ماكنالي في حيرة:

- أعتقد أن تلك حافلة غريبة.

أظن أن تلك المرأة المحترمة اشتبهت في أنني سوف أفرُّ مع عشيقي.

حملتُ حقيبتي إلى العربة. وقفت بيجاسوس بهدوء بين عمودَي العربة. جاءت أصوات حركة نشطة من الداخل، وفي لحظة، اندفع الرجل الضئيل خارجًا، حاملًا في يده حقيبة منتفخة. اعتمر قبعة من قماش «التويد»، مالت على مؤخرة رأسه.

صاح بنبرة انتصار:

- هاكِ! لقد حزمت كل أمتعتي الشخصية - الملابس وما إلى ذلك - وكل شيء آخر سيؤول إليكِ مع هذه الصفقة. عندما أستقل القطار بهذه الحقيبة، سأصبح

رجلًا حرًّا، ومرحى لبروكلين! رباه، كم سأشعر بالسعادة لعودتي إلى المدينة!

أضاف قائلًا بحزن:

– لقد عشت في بروكلين ذات مرة، ولم أعد إلى هناك منذ عشر سنوات.

ناولته الشيك قائلة:

– ها هو الشيك.

احمرَّ وجهه بعض الشيء، ونظر لي بخجل نوعًا ما، وقال:

– انظري هنا، آمل ألَّا تعقدي صفقة سيئة. لا أريد استغلال سيدة. إذا كنتِ تعتقدين أن شقيقكِ...

قلت:

– كنت سأشتري سيارة فورد، على أي حال، ويبدو لي أن تكلفة قيادة عربتك هذه ستكون أقل من أي سيارة رخيصة خرجت من ديترويت على الإطلاق. أريد إبعادها عن أندرو، وهذا هو أهم شيء. فلتعطني إيصالًا، وسنبتعد عن هنا قبل عودته.

تناول الشيك من دون أن ينبس بكلمة، ورفع حقيبته المنتفخة على مقعد السائق، ثم اختفى داخل العربة،

وعاد إلى الظهور بعد دقيقة. كتب على ظهر إحدى بطاقاته الشعرية:

> استلمت من الآنسة ماكجيل مبلغ أربعمائة دولار مقابل مكتبة متنقلة في حالة ممتازة، سُلِّمتْ لها في هذا اليوم، الثالث من أكتوبر عام ١٩-
> توقيع روجر ميفلين.

قلت:

- خبِّرني، هل تحتوي مكتبتك المتنقلة - بل بالأصح، مكتبتي المتنقلة - على كل شيء قد أحتاج إليه؟ هل هي محملة بالطعام، وما إلى ذلك؟

قال:

- كنت سأصل في حديثي إلى تلك النقطة. ستجدين مخزونًا جيدًا من الأشياء في الخزانة أعلى الموقد، على الرغم من أنني كنت أحصل على معظم وجباتي في المزارع على طول الطريق. عادةً، أقرأ للناس بصوت مرتفع في طريقي، وغالبًا ما يكونون كرماء بما يكفي لمنحي وجبة مجانية. من المدهش مدى قلة معرفة معظم أهل الريف بالكتب، ومدى سعادتهم لسماع الكتب الجيدة. في مقاطعة لانكستر، بنسلفانيا...

قلت بعجل، حينما رأيته على وشك الشروع في حكاية:

- حسنًا، ماذا عن الحصان؟

لم يكن الوقت يبعد كثيرًا عن الحادية عشرة، ورغبت في الشروع في الأمر.

- ربما يكون من الجيد أن تأخذي معكِ بعض الشوفان، فقد شارف مخزوني على النفاد.

ملأت كيسًا بالشوفان في الحظيرة، وأطلعني السيد ميفلين على مكان تعليقه أسفل العربة. بعد ذلك، ملأت سلة كبيرة في المطبخ بالمؤن للطوارئ: دستة من البيض، وجرة من شرائح لحم الخنزير المقدد، والزبدة، والجبن، والحليب المكثف، والشاي، والبسكويت، والمربى، ورغيفين من الخبز. وضعها السيد ميفلين داخل العربة، بينما السيدة ماكنالي تراقب في ذهول.

قالت:

- أعتقد أن هذه نزهة غريبة للغاية! أي طريق ستسلكينه؟ هل سيلحق بكِ السيد ماكجيل؟

قلت بإصرار:

- لا، لن يأتي. سوف أذهب لقضاء عطلة. أعدِّي له العشاء،

ولن يقلق هو بشأن شيء، إلا بعد ذلك. أخبريه أنني ذهبت لزيارة السيدة كولينز.

صعدتُ الدرجات الصغيرة، ودخلت مكتبتي المتنقلة وقد اعتراني شعور ممتع بالملكية. قفز كلب الترير الذي كان على الفراش إلى الأرض، بهزة ودودة من ذيله. كومت الفرش والبطاطين الخاصة بي فوق الفراش، ونفضت الأدراج المثبتة فوق الفراش، ووضعت فيها المتعلقات القليلة التي سآخذها معي، وصرنا جاهزين للانطلاق.

جلس ذو اللحية الصهباء في مقدمة العربة بالفعل، ممسكًا مقود الحصان في يده. صعدت إلى جانبه. كان المقعد الأمامي عريضًا، لكنه غير مبطن، وقد حمته قمة العربة على نحو جيد. ألقيت نظرة سريعة حولي على المنزل المريح تحت أشجار الدردار والقيقب، ورأيت الحظيرة الحمراء الكبيرة تلتمع تحت الشمس، ومضخة المياه تحت تعريشة العنب. لوحت مودعة السيدة ماكنالي، التي راقبتنا في ذهول صامت. جذبت بيجاسوس سيور العربة بثقلها القوي، فدارت المكتبة المتنقلة وسارت متجاوزة البوابة، وانعطفنا إلى طريق ريدفيلد.

ناولني السيد ميفلين المقود قائلًا:

- هاكِ، أنتِ الربان، ومن الأفضل أن تتولي القيادة. في أي طريق تريدين الذهاب؟

تسارعت أنفاسي بعض الشيء، عندما أدركت أن مغامرتي قد بدأت!

الفصل الرابع

بمنأى عن المزرعة بمسافة بسيطة، يتفرع الطريق، فيؤدي أحد الاتجاهين إلى والتون، حيث يعبر المرء النهر عن طريق جسر مُغطًّى، بينما ينحدر الاتجاه الآخر نحو جرينبراير وبورت فيجور. تعيش السيدة كولينز على بُعد ميل أو نحو ذلك على طريق والتون. وحيث إنني كثيرًا ما أذهب لزيارتها، فقد ظننت أن أندرو سيبحث عني هناك على الأرجح. لذلك، بعد أن مررنا عبر البستان، انعطفت جهة اليمين نحو جرينبراير. بدأنا رحلة الصعود الطويلة أعلى تل هاكلبيري، وعندما شممت رائحة الخريف المنعشة، ضحكت بعض الشيء.

بدا السيد ميفلين منتشيًا تمامًا، بمعنويات عالية. قال:

- هذا رائع بكل تأكيد. يا إلهي، أقدِّر شجاعتكِ. هل تعتقدين أن السيد ماكجيل سوف يلاحقكِ؟

قلت:

- ليست لديَّ فكرة. ليس على الفور، على أي حال. لقد أَلِف عاداتي الثابتة بدرجة كبيرة، لدرجة أنني لا أعتقد أنه سيرتاب في أي شيء، حتى يجد رسالتي. أتساءل أي نوع من الحكايات سترويها السيدة ماكنالي!

قال:

- ما رأيكِ لو ضلَّلناه لإبعاده عن طريقكِ؟ أعطيني منديلكِ.

فعلت، فقفز من العربة برشاقة، وركض عائدًا أسفل التل، (كان شخصًا ضئيلًا خفيف الحركة، على الرغم من رأسه الأصلع)، وأسقط المنديل على طريق والتون، على بُعد مائة قدم تقريبًا من تفرع الطريق. بعد ذلك، تبعني أعلى المنحدر.

ابتسم كالطفل وهو يقول:

- هاكِ، سوف يخدعه ذلك. لا شك في أن حكيم ريدفيلد سوف يقتفي أثرًا خطأً، وسيفوز المجرمون بسبق جيد. لكن أخشى أنه من السهل إلى حد ما اتباع عربة غريبة كهذه المكتبة المتنقلة.

- أخبِرني كيف تدير هذا الشيء. هل حقًّا تجعله يُدِر ربحًا؟

توقفنا عند قمة التل لمنح بيجاسوس مساحة لالتقاط الأنفاس. استلقى كلب الترير على التراب، وراقبَنا بجدية. أخرج السيد ميفلين غليونًا، وطلب مني الإذن في التدخين. قال:

- من المضحك إلى حدٍّ ما، كيف تورطتُ في هذا في بادئ الأمر. كنت معلمًا في مدرسة في ولاية ماريلاند. واصلت العمل لسنوات في مدرسة ريفية، مقابل أجر لا يسمن ولا يغني من جوع. حاولت إعالة أم مقعدة، وادخار مبلغ ما في حالة الطوارئ. أذكر كيف اعتدت أن أتساءل عمَّا إذا كنت سأتمكن على الإطلاق من ارتداء بدلة غير رثة، وأطلب تلميع حذائي كل يوم. ثم خانتني صحتي، وطلب مني الطبيب الخروج إلى الهواء الطلق. بمرور الوقت، خطرت لي هذه الفكرة بمكتبة متنقلة. لطالما كنت محبًّا للكتب، وفي الأيام التي كنت أقيم فيها بين المزارعين، كنت أقرأ لهم بصوت مرتفع. بعد وفاة والدتي، بنيت العربة لتتناسب مع أفكاري الخاصة. اشتريت مجموعة من الكتب من متجر كبير للكتب المستعملة في بالتيمور، وانطلقت في طريقي. أنقذتْ هذه المكتبة المتنقلة حياتي تقريبًا، على ما أعتقد.

دفع قبعته القديمة الباهتة إلى الخلف فوق رأسه، وأعاد

إشعال غليونه. طقطقت بلساني لبيجاسوس، فصعدنا فوق المرتفعات وقد تعالت قعقعة حوافرها بلطف، ونظرنا إلى المراعي بالأسفل. رنَّت أجراس الأبقار البعيدة بين الشجيرات. عبر منحدر التل، كان بإمكاني رؤية الطريق متعرجًا نحو ريدفيلد. في مكان ما عبر ذلك الطريق، سيكون أندرو عائدًا إلى المنزل، وإلى لحم الخنزير المشوي مع صلصة التفاح. وهأنذا، أنطلق لممارسة أول جنون في حياتي، من دون أدنى قلق.

قال الرجل الضئيل:

- آنسة ماكجيل، لقد كان هذا الصوان المتنقل بمنزلة زوجة لي، وطبيب مداوٍ، وديانة أعتنقها، لمدة سبع سنوات. قبل شهر مضى، كنت سأسخر من فكرة التخلي عنه، لكن بطريقة ما، خطر لي أنني بحاجة إلى التغيير. هناك كتاب أتوق إلى كتابته منذ مدة طويلة، وأحتاج إلى مكتب ثابت تحت مرفقي، وسقف فوق رأسي. وعلى الرغم من أن الأمر يبدو سخيفًا، فإنني أرغب في العودة إلى بروكلين. عشنا أنا وأخي هناك إبان طفولتنا. تخيلي التمشية فوق الجسر القديم عند غروب الشمس، ورؤية أبراج مانهاتن في مواجهة سماء حمراء! وتلك الطرادات العتيقة في ساحة البحرية! أنتِ لا تعرفين

كم أنا مبتهج لتصفية بضاعتي. لقد بعت نسخًا كثيرة من كتب شقيقكِ، وكثيرًا ما فكرت أنه سيكون الرجل الذي يشتري هذه المكتبة المتنقلة إذا سئمت منها.

قلت:

- سيفعل حقًّا. إنه الرجل المناسب. من المحتمل جدًّا أن يُقدِم على ذلك، وسيرتحل في هذه العربة المتجولة، ويهمل المزرعة. لكن أخبِرني عن بيع الكتب. ما مقدار الربح الذي تجنيه من ذلك؟ سنمر بمزرعة السيدة ميسون عما قريب، ويجدر بنا أن نبيعها شيئًا ما، لمجرد الشروع في الأمر.

قال:

- الموضوع في غاية البساطة. أجدد مخزوني كلما مررت عبر بلدة كبيرة. دومًا ما تكون هناك مكتبة لبيع الكتب المستعملة في مكان ما، حيث يمكنك الحصول على أشياء متفرقة. وبين حين وآخر، أكتب إلى تاجر جملة في نيويورك لأطلب بعض الأشياء. عندما أشتري كتابًا، أدوِّن على الخلف ما دفعته بالتحديد مقابلًا له، وبعد ذلك أعرف بكم يمكنني بيعه. انظري هنا.

سحب كتابًا من خلف المقعد - كانت نسخة من رواية

«لورنا دون» - وأطلعني على الحرفين المدونين بقلم رصاص في الخلف:

ال

- هذا يعني أنني دفعت عشرة سنتات مقابل الكتاب. الآن، إذا بعته مقابل ربع دولار، فسوف تحصلين على هامش ربح آمِن. تكلفني إدارة هذه المكتبة المتنقلة نحو أربعة دولارات أسبوعيًّا، بل أقل بصفة عامة. إذا جنيتِ هذا القدر في ستة أيام، فسيصبح بوسعكِ الاستراحة في أيام الأحد!

سألته:

- كيف عرفت أن ال تعني عشرة سنتات؟

- إن كلمة السر هي الكتب نفيسة. كل حرف يرمز إلى رقم، من ٠ إلى ٩، أرأيتِ؟

كتبها على قصاصة ورق.

ا	ل	ك	ت	ب	ن	ف	ي	س	ة
٠	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩

- ها أنتِ ترين الآن أن ال ترمز إلى الرقم ١٠، وتمثل ك ل الرقم ١٢، وتمثل ب ك ٢٤، وتمثل ن ل ١٥،

بينما ١١ل تعني ١٠٠ سنت، وهلم جرًّا. لا أدفع أكثر من خمسين سنتًا مقابل الكتب وفق قاعدة عامة، لأن أهل الريف يتجنبون دفع الكثير ثمنًا لها. سيدفعون الكثير مقابل فرازة لفصل القشدة عن الحليب، أو مقابل سقف لعربة، لكنهم لم يتعلموا قَطُّ الاهتمام بالأدب! لكن من المدهش مدى حماستهم بشأن الكتب، إذا بعت لهم النوع المناسب. فيما وراء بورت فيجور، ثمة مُزارع ينتظر عودتي - ذهبت هناك ثلاث أو أربع مرات - وسيشتري بما قيمته نحو خمسة دولارات، إذا صحَّت معرفتي به. في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى هناك، بعت له رواية «جزيرة الكنز»، وما زال يتحدث عنها حتى الآن. كما بعت له «روبنسون كروزو»، و«نساء صغيرات» من أجل ابنته، و«هاكلبيري فين»، وكتاب جراب عن «البطاطس». في المرة الأخيرة لوجودي هناك، أراد بعضًا من كتب شكسبير، لكنني رفضت منحه إياها. لم أعتقد أنه مستعد لها بعد.

بدأت أرى شيئًا من مثالية الرجل الضئيل في عمله. كان تبشيريًّا متجولًا من نوع ما، بطريقته الخاصة. كما كان متحدثًا قويًّا أيضًا. شرعت عيناه تلتمعان الآن، وبات بوسعي رؤيته يزداد حماسًا.

قال:

- يا إلهي! عندما تبيعين كتابًا لرجل، فأنتِ لا تبيعينه مجرد اثنتي عشرة أوقية من الورق والحبر والصمغ، بل تبيعينه حياة جديدة بأكملها. الحب، والصداقة، والفكاهة، والسفن في عرض البحر ليلًا، والسماء والأرض بأكملهما موجودان داخل كتاب، أعني بذلك الكتاب الحقيقي. رباه! لو كنت أنا الخباز، أو الجزار، أو بائع المكانس المتجول، لركض الناس إلى البوابة عند مروري، في انتظار بضاعتي فحسب. وهأنذا أمضي محمَّلًا بالخلاص الأبدي - أجل، يا سيدتي، الخلاص لعقولهم الصغيرة غير مكتملة النمو - ومن الصعب حملهم على رؤية ذلك. هذا ما يجعل الأمر يستحق، فأنا أفعل شيئًا لم يطرأ على بال أي شخص آخر من قبل، من الناصرة وولاية مين، حتى والا والا وواشنطن. إنه مجال جديد، لكن قسمًا بروح ويتمان، فإن الأمر يستحق. هذا هو ما يحتاج إليه هذا الوطن، مزيد من الكتب!

ضحك على شدة حماسه، وقال:

- أتدرين؟ إن الأمر مضحك. حتى الناشرون، الرفاق الذين يطبعون الكتب، لا يمكنهم رؤية ما أفعله من أجلهم. بعضهم يرفض البيع لي بالأجل، لأنني أبيع كتبهم مقابل

قيمتها، بدلًا من الأسعار التي يدونونها عليها. يكتبون لي رسائل حول الحفاظ على الأسعار، فأكتب لهم ردًا حول الحفاظ على القيمة. أقول، انشر كتابًا جيدًا، وسأحصل على ثمن جيد مقابله! أعتقد أحيانًا أن الناشرين يعرفون عن الكتب أقل مما يعرفه أي شخص آخر! على الرغم من هذا، فإنني أعتقد أن ذلك طبيعي. فلا يعرف معظم معلمي المدارس الكثير عن الأطفال.

واصل قائلًا:

- أفضل ما في الأمر هو أنني أقضي وقتًا ممتعًا للغاية. نذهب أنا وبيج وبوك (هذا هو اسم الكلب) للتسكع عبر الطريق في يوم صيفي دافئ، وبمرور الوقت نصل إلى نُزل ما، حيث يستمتع النزلاء بتناول غدائهم في الشرفة. يغلب على معظمهم الشعور بالملل الشديد، إذ لا يوجد شيء جيد للقراءة، ولا شيء يفعلونه سوى الجلوس ومراقبة طنين الذباب تحت الشمس، والدجاج يتمرغ في التراب جيئة وذهابًا. سرعان ما أبيعهم نصف دستة من الكتب التي تزرع فيهم حب الحياة، ولا ينسون المكتبة المتنقلة بسرعة. إليك أوليفر هنري، على سبيل المثال، فلا يوجد أي شخص يشعر بالنعاس بشدة، بالدرجة التي تمنعه من الاستمتاع بقصص ذلك الرجل.

لقد فهم الحياة، بكل تأكيد، وتمكن من كتابتها بكل تقلباتها الصغيرة. لقد قضيت أمسية في قراءة أوليفر هنري وويلكي كولينز للناس، وجعلتهم يشترون كل كتبهم التي لديَّ، ويصيحون طلبًا للمزيد.

طرحت عليه سؤالًا عمليًّا، كما هو حال معظم أسئلتي:

- ماذا تفعل في الشتاء؟

قال السيد ميفلين:

- هذا يتوقف على مكاني حينما يحل الطقس السيئ. كنت في الجنوب خلال فصل الشتاء مرتين، وتمكنت من الاستمرار في تشغيل المكتبة المتنقلة طوال الموسم. في الأحوال الأخرى، أمكث حيثما كنت فحسب. لم أواجه صعوبة على الإطلاق في العثور على مأوى لبيج وعمل لنفسي، إذا اضطررت إلى الحصول عليهما. في الشتاء الماضي، عملت في متجر لبيع الكتب في بوسطن. وفي الشتاء السابق له، كنت في صيدلية ريفية في ولاية بنسلفانيا. الشتاء السابق لذلك، درَّست الأدب الإنجليزي لصبيَّين صغيرَين. أما الشتاء السابق لذلك، فقد عملت مضيفًا على إحدى السفن البخارية. ها أنتِ ترين كيف تسير الأمور. لقد خضت تجارب متنوعة إلى حد ما. على حد رأيي، فإن الرجل المولع بالكتب

لن يتضور جوعًا أبدًا! لكنني أخطط للعيش مع أخي في بروكلين هذا الشتاء، والعمل على كتابي. يا إلهي، كم انشغلت بالتفكير في ذلك الأمر! جلست هنا عصر أيام صيفية طويلة، متنقلًا عبر طرق ترابية، أفكر في الأمر، حتى بدا كما لو أن رأسي سينفجر. كما ترين، فأنا أعتقد أن عامة الناس - أي في الريف - لم تسنح لهم الفرصة قَطُّ للحصول على الكتب، ولم يكن هناك قَطُّ مَن يشرح لهم ما تعنيه الكتب. لا بأس في أن يخطط رؤساء الجامعات لأرففهم البالغ ارتفاعها خمس أقدام التي تمتلئ بالأدب العظيم، وأن يعلن الناشرون عن مجموعاتهم من الكلاسيكيات المجلدة بالمشمع، لكن ما يحتاج إليه الناس هو الأشياء الجيدة البسيطة الصادقة - شيء يشبعهم - ويجعلهم يضحكون، ويرتجفون، ويشعرون بالغثيان عند التفكير في ضآلة كرة الفشار هذه التي تدور في الفضاء من دون التعرض للحرارة على الإطلاق! وشيء من شأنه تحفيزهم على إبقاء المدفأة مكنوسة جيدًا، وكومة الحطب مقطعة إلى أجزاء جاهزة للإشعال، والأطباق مغسولة ومجففة وموضوعة في مكانها. أي شخص يستطيع حمل أهل الريف على قراءة شيء يستحق، يسدي إلى أمته خدمة حقيقية. وهذا هو ما تطمح إليه هذه القافلة الثقافية...

لا بد أنكِ سئمتِ هذه الخطبة! هل استفاض حكيم ريدفيلد في الحديث على هذا النحو من قبل؟

قلت:

- ليس معي أنا. لقد عرفني لمدة طويلة، حتى بات يظنني آلة حية من نوع ما لخَبز الخُبز ومزج عجين الكعك. أعتقد أنه لا يُعوِّل كثيرًا على رأيي في الأمور الأدبية، لكنه يضع جهازه الهضمي بين يديَّ من دون تحفظ. ها هي مزرعة ميسون هناك. أعتقد أنه يجدر بنا بيعهم بعض الكتب، أليس كذلك؟ مجرد بداية.

انعطفنا إلى الممر الموصل إلى مزرعة ميسون. هرول بوك أمامنا - بسيقان متيبسة للغاية، وذيله يهتز برفق - لمقابلة كلب الماستيف، أما السيدة ميسون التي جلست في الشرفة تقشر البطاطس، فقد نحَّت المقلاة جانبًا. كانت امرأة ضخمة عامرة الصدر، بعينين بُنيتين مرحتَين كعينَي البقرة.

نادت بصوت مبتهج:

- بحق السماء، يا آنسة ماكجيل، كم أنا سعيدة لرؤيتكِ! لقد وجدتِ مَن يقلكِ في عربته، أليس كذلك؟

لم تكن قد لاحظت حقًّا الكلام المدون على المكتبة المتنقلة، وظنَّت أنها عربة بائع متجول عادية.

قلت:

- حسنًا، يا سيدة ميسون. لقد دخلت مجال تجارة الكتب. هذا هو السيد ميفلين، وقد اشتريت بضاعته. جئنا كي نبيع لكِ بعض الكتب.

ضحكت وقالت:

- دعكِ من هذا، يا هيلين، لا يمكنكِ خداعي! لقد اشتريت مجموعة كاملة من الكتب في العام الماضي من أحد الوكلاء «الخطب الجنائزية العظمى في العالم» عشرين مجلدًا. لم نقرأ أنا وسام بعد أكثر من المجلد الأول. إنها قراءة صعبة للغاية!

قفز ميفلين مترجلًا، ورفع السديلة الجانبية للعربة، واقتربت السيدة ميسون. سُررت بمشاهدة كيف أن الرجل الضئيل ابتهج لرؤية زبون. بدا من الواضح أن بيع الكتب يُعَد مصدر سعادة بالنسبة إليه.

قال:

- يا سيدتي، إن «الخطب الجنائزية» (مجلدة بقماش الخيش على ما أعتقد؟) لها مكانها الخاص، لكن الآنسة ماكجيل وأنا لدينا هنا بعض الكتب الحقيقية التي أدعوكِ إلى الانتباه لها. سيحل الشتاء قريبًا،

وسوف تحتاجين إلى شيء أكثر بهجة لتسلية أمسياتكِ. من المحتمل جدًّا أن لديكِ أطفالًا في طور النمو، سيستفيدون من كتاب جيد أو كتابين. كتاب حكايات خرافية للفتاة الصغيرة التي أراها في الشرفة؟ أو حكايات عن المخترعين، لذلك الفتى الذي يوشك على كسر رقبته وهو يقفز من الدور العلوي بالحظيرة؟ أو كتاب عن تمهيد الطرق لزوجكِ؟ بالتأكيد هناك شيء ما تحتاجين إليه هنا؟ ربما تعرف الآنسة ماكجيل ذوقكِ.

من المؤكد أن ذلك الرجل الضئيل، ذا اللحية الصهباء، بائع بالفطرة. الرب وحده يعلم كيف خمن أن السيد ميسون هو مفوض الطرق في بلدتنا. ربما كانت مجرد ضربة حظ. حينها كانت معظم الأسرة قد تجمعت حول العربة، ورأيت السيد ميسون قادمًا من الحظيرة مع ابنه بيلي البالغ من العمر اثني عشر عامًا.

صاحت السيدة ميسون قائلة:

- سام، ها هي الآنسة ماكجيل قد تحولت إلى بائعة كتب متجولة، وبصحبتها واعظ!

كان السيد ميسون رجلًا ضخمًا بطيء الحركة، شديد الجدية والصلابة. قال:

- مرحبًا، آنسة ماكجيل. أين أندرو؟

قلت:

- سيعود أندرو إلى المنزل لتناول لحم الخنزير المشوي وصلصة التفاح، وسأذهب أنا كي أبيع الكتب لكسب عيشي. السيد ميفلين هنا يعلِّمني كيفية ذلك. لدينا كتاب عن إصلاح الطرق، وهو ما تحتاج إليه تمامًا.

رأيت السيد والسيدة ميسون يتبادلان النظرات. من الواضح أنهما اعتقدا أنني جُننت. بدأت أتساءل عمَّا إذا كنَّا قد اقترفنا خطأً بزيارة أشخاص أعرفهم على نحو جيد إلى هذا الحد. بدا الموقف محرجًا إلى حد ما.

أتى السيد ميفلين لنجدتي.

قال للسيد ميسون:

- لا تقلق يا سيدي، لم أختطف الآنسة ماكجيل.

(نظرًا إلى أنه كان في نصف حجمي تقريبًا، بدا هذا مثيرًا للضحك). واصل قائلًا:

- نحاول زيادة دخل شقيقها من خلال بيع كتبه نيابةً عنه. في الواقع، لدينا رهان معه أننا ستتمكن من بيع خمسين نسخة من كتاب «السعادة والعُصافة» قبل عيد جميع

القديسين. الآن، أنا واثق بأن طباعك الكريمة ستمد إلينا يد العون بشراء ولو نسخة واحدة على الأقل. إن أندرو ماكجيل هو أعظم كاتب في هذه الولاية على الأرجح، ويجب أن يمتلك كل دافع ضرائب كتبه. هل لي أن أريك نسخة؟

كاد السيد ميفلين يبتسم، وقال:

- يبدو هذا معقولًا. ما رأيكِ يا إيما، أتعتقدين أنه يجدر بنا شراء كتاب أو اثنين؟ أنتِ تعرفين «الخطب الجنائزية» تلك...

قالت إيما:

- حسنًا، كما تعلم، لطالما قلنا إن علينا قراءة أحد كتب أندرو ماكجيل، لكننا لم نعرف حقًّا كيف نحصل على واحد منها. لم يبدُ أن ذلك الرجل الذي باعنا كتب «الخطب الجنائزية» يعرف بشأنها. لديَّ اقتراح، من الأفضل أن تتوقفا وتتناولا معنا العشاء، ويمكنكما إخبارنا بما يجب علينا شراؤه. أنا مستعدة تمامًا لوضع البطاطس على الموقد الآن.

عليَّ الاعتراف بأن فرصة الجلوس لتناول وجبة لم أطبخها بنفسي راقت لي بشدة، وتحمست لرؤية نوعية

الطعام التي تقدمه السيدة ميسون إلى أسرتها. لكنني خشيت أن يلحق بنا أندرو، إذا تلكأنا هناك لمدة طويلة عن اللازم. أوشكت على القول إنه يتعين علينا مواصلة طريقنا، ولا يمكننا البقاء، لكن يبدو أن لذة شرح فلسفته إلى مستمعين جدد كانت كبيرة جدًّا بالنسبة إلى ميفلين، فسمعته يقول:

- هذا لطف كبير منكِ، يا سيدة ميسون، وسيسعدنا كثيرًا أن نبقى. ربما يمكنني وضع بيج في حظيرتكم لبعض الوقت. بعد ذلك، يمكننا إخباركم كل شيء عن كتبنا.

ولدهشتي، وجدت نفسي أضم إليه صوتي بالموافقة.

من المؤكد أن ميفلين تفوق على نفسه خلال العشاء. غلب مذاق صودا الخبيز على بسكويت السيدة ميسون الساخن، وأشعرني ذلك بالرضا بدرجة أقل بكثير مما كنت سأشعر به في أوقات أخرى، نظرًا إلى انغماسي في الاستماع إلى حديث المتجول الضئيل. أتى السيد ميسون إلى المائدة وهو يتذمر قائلًا شيئًا ما بخصوص أن هاتفه معطل (تساءلتُ عمَّا إذا كان يحاول الاتصال بأندرو هاتفيًّا. أعتقد أنه شعر بالخوف بعض الشيء من كوني هاربة مع أحدهم) لكن سرعان ما استماله تيار خفة الدم المبهجة للرجل الضئيل. لم يثبط أي شيء

من همة ميفلين. تحدث مع الجدة العجوز عن الألحفة، وعرض قص شريط من ربطة عنقه من أجل لحافها الجديد المصنوع من رقع الأقمشة، وحكى كل شيء عن الكتاب المصور عن الألحفة الذي لديه في العربة. تناقش مع السيدة ميسون في فن الطهي والكتاب المقدس، ونظرًا إلى كونها من الشخصيات البارزة في مدرسة الأحد بجرينبراير، فقد أحسَّت بالصدمة على نحو لطيف من حكايته عن أفضل القصص البوليسية في العهد القديم. مع السيد ميسون، دار حديثه كله عن الزراعة العلمية، والأسمدة الكيميائية، والطرق المرصوفة بالحصى، وتناوب المحاصيل. أما الصغير بيلي (الذي جلس إلى جواره)، فقد حكى له قصصًا رائعة عن دانييل بون، وديفي كروكيت، وكيت كارسون، وبافالو بيل، وما إلى ذلك. بصراحة، أدهشني الرجل الضئيل. بدا ودودًا كصرصور ليل على أرض المدفأة، ومع ذلك، بين حين وآخر، كان إخلاصه الشديد يظهر. لا عجب أنه ناجح في بيع الكتب. أعتقد أن ذلك الرجل يمكنه أن يبيع مشابك الغسيل أو مشدات الجوارب، ويجعلها تبدو رومانسية.

قال:

- كما تعلم يا سيد ميسون، أنت مدين بالتأكيد لصغارك

هؤلاء، بوضع بعض الكتب الجيدة حقًّا بين أيديهم. أطفال المدينة لديهم مكتبات عامة يذهبون إليها، لكن في الريف لا يوجد سوى روزنامة الدكتور هوستيتر العجوز، والرسائل التي كتبتها سيدات مصابات بآلام في الظهر، يحكين كيف أفادهن دواء «بيرونا». امنح ابنك وابنتك بعض الكتب الجيدة، وستضعهما على بداية مسار مزدوج آمِن يؤدي إلى السعادة. الآن، توجد رواية «نساء صغيرات»، يمكن أن تتعلم منها ابنتك عن الطفولة الحقيقية، والأنوثة الرقيقة، أكثر مما ستتعلمه في عام كامل من الدمى الورقية في غرفة العلية.

وافقته السيدة ميسون قائلة:

- هذا صحيح، يا أبتاه، (أكمِل تناول طعامك يا بروفيسور، سوف يبرد اللحم).

استهواها تمامًا بائع الكتب المتجول، ومنحته أعلى لقب شرف تعرفه. تابعت قائلة:

- لقد قرأت تلك القصة حينما كنت طفلة، وما زلت أتذكرها. أعتقد أن هذه القراءة أفضل لدوروثي، أكثر من «الخطب الجنائزية» تلك. أظن أن البروفيسور على حق، يجب أن يكون لدينا كتب أكثر حولنا. يبدو من

المخجل أننا لا نقرأ أكثر، مع وجود مؤلف مشهور في المزرعة المجاورة، أليس كذلك؟

لذا عندما بدأنا نتناول فطيرة قرع السيدة ميسون (أعترف أيضًا أنها كانت فطيرة جيدة، لكن يدها تفتقد الرقة بعض الشيء لصنع المعجنات)، باتت الأسرة بأكملها متحمسة بشأن الكتب، وأصبح الجو أدبيًّا بما يكفي لأن يعيش فيه حتى الدكتور إليوت ويتنفس بارتياح. فتحت السيدة ميسون غرفة استقبالها، وجلسنا هناك بينما ألقى ميفلين قصيدتَي «الانتقام»، و«مود مولر».

قالت إيما ميسون:

- حسنًا، الآن، أليس ذلك لطيفًا حقًّا؟ من المدهش أن تكون هذه الكلمات مسجوعة بإتقان إلى هذا الحد. يبدو تقريبًا كما لو أن ذلك تم عمدًا! يذكِّرني هذا بيوم الإلقاء في المدرسة. تعلمت نصًّا جميلًا للغاية اسمه «تحطم السفينة أسبيروس».

ثم استغرقتْ في حزن رقيق.

رأيت أن السيد ميفلين اندمج للغاية في هوايته. شرع يحكي للأطفال عن روبين هود، لكن كان لديَّ ما يكفي من حسن التقدير كي أغمز له. كان يتعين علينا

المضي في طريقنا، وإلا قد يلحق بنا أندرو بكل تأكيد. لذا بينما أعاد ميفلين بيجاسوس بين عمودَي العربة مرة أخرى، انتقيت سبعة أو ثمانية كتب ظننت أنها قد تناسب احتياجات آل ميسون. أصر السيد ميسون أن يكون من بينها كتاب «السعادة والعُصافة»، ومنحني ورقة مالية جديدة من فئة خمسة دولارات، رافضًا أن يأخذ باقي المبلغ، وقال:

- لا، لا، لقد استمتعت أكثر مما أستمتع باجتماعات الجمعية التعاونية الزراعية. تعالي مرة ثانية، يا آنسة ماكجيل. سوف أُخبِر أندرو عن مدى جودة العرض الذي يقدمه مسرحكِ المتنقل هذا! وأنت، يا بروفيسور، في أي وقت تكون موجودًا هنا خلال موسم إصلاح الطرق، تعالَ وأسدِ لي مزيدًا من النصائح الجيدة. حسنًا، عليَّ العودة إلى الحقل.

انتظم بوك في السير أسفل العربة، وانطلقنا عبر الممر والصرير يتعالى من العربة. حشا ميفلين غليونه بالتبغ، وهو يضحك على نحو خافت. بتُّ قلقة بعض الشيء الآن، من أن يلحق بنا أندرو.

قلت:

- من العجيب أن سام ميسون لم يتصل بأندرو. لا بد أنه

بدا من الغريب جدًّا له أن تتجول عاملة مزرعة قديمة مثلي لبيع الكتب.

قال ميفلين:

- كان سيفعل ذلك على الفور، لكن كما ترين، فقد قطعت سلك هاتفه!

الفصل الخامس

حدقت بدهشة إلى المحتال الضئيل الهرِم. ها هو جانب جديد لصاحب المثاليات الودود! على ما يبدو، كانت به نزعة من الجرأة الشيطانية، إلى جانب حبه اللطيف للكتب. لا بد لي من القول الآن، ولأول مرة، إنني أُعجبت به حقًّا. كنت قد أحرقت سفن الاحترام البالغ من خلفي، وسُررت نوعًا ما لمعرفة أنه هو أيضًا يمكنه التصرف بسرعة عند الضرورة.

قلت:

- حسنًا، أنت تتمتع بالجرأة الشديدة! من حسن حظك أنك لم تستمر في العمل معلمًا في مدرسة. كان من الممكن أن تعلِّم تلاميذك بعض التصرفات الشيطانية! وفي سنك هذه أيضًا!

أخشى أن مزاحي يتجاوز الحد بعض الشيء أحيانًا. تضرج وجهه حمرةً إلى حد ما عند إشارتي إلى سنه، ونفث دخان غليونه بحدة.

أجاب قائلًا:

- يا إلهي، كم تعتقدين أنني أبلغ من العمر، على أي حال؟ أقسم بروح بايرون إنني في الحادية والأربعين فحسب! كان هنري الثامن في الحادية والأربعين من عمره، حينما تزوج آن بولين. يقدِّم التاريخ الكثير من العزاء لمَن هم فوق الأربعين! تذكَّري هذا، عندما تصلين إلى تلك السن.

أضاف قائلًا بمرح أكثر:

- لقد كتب شكسبير «الملك لير» في سن الحادية والأربعين.

ثم انفجر في الضحك، وقال:

- أود تحرير سلسلة من «كلاسيكيات الكلوروفورم»، تشمل الكتب المكتوبة بعد سن الأربعين فقط. مَن كان ذلك الطبيب الذي نصحنا بالمواد المخدرة في تلك السن؟ الآن، أليس ذلك من شيم الأطباء تمامًا؟ يعالجنا خلال أمراض الطفولة، وما إن نستقر في صحة جيدة

دائمة وخبرة بأمور الدنيا، ونتحرر من أتعاب الأطباء، حتى يفقد الاهتمام بنا! يا إلهي! يجب أن أدوِّن هذا، وأُضمِّنه في كتابي.

أخرج دفتر مذكرات، ودوَّن فيه بخط صغير منتظم: «كلاسيكيات الكلوروفورم».

(شعرت ببعض الندم، إذ إنني أسفت للغاية لكوني أسأت إليه)، وقلت:

– حسنًا، أنا شخصيًّا تجاوزت الأربعين تبعًا لبعض المعايير، لذا لم يعد الشباب يحمل أي مخاوف بالنسبة إليَّ.

نظر إليَّ على نحو مثير للضحك نوعًا ما.

قال:

– يا سيدتي العزيزة، إن عمركِ هو ثمانية عشر عامًا بالتحديد. أعتقد أننا إذا أفلتنا من براثن حكيم ريدفيلد، فقد تبدئين مرحلة شبابك حقًّا.

قلت:

– أوه، إن أندرو ليس شخصًا سيئًا. إنه شارد الذهن، وعصبي المزاج، وأناني بعض الشيء، وقد بذل

الناشرون قصارى جهدهم لإفساده، لكن بالنسبة إلى كونه أديبًا، أعتقد أنه يتمتع بالإنسانية إلى حد كبير. لقد أنقذني من العمل مربيةً، وهذا يُحسب له. لو أنه فقط لم يأخذ وجباته بوصفها أمرًا مسلَّمًا به إلى هذا الحد...

قال ميفلين:

- الشيء غير المعقول فيه هو أنه يستطيع الكتابة بالفعل. أنا أحسده على ذلك. لا تدعيه يعرف أنني قلت ذلك، لكن في الواقع، فإن نثره يكاد يضاهي ثورو جودةً. إنه يدنو من الحقائق بلطف، مثل قطة تعبر طريقًا مبلَّلًا.

فكرت: «يجدر بك أن تراه على العشاء»، أو بالأحرى كنت أنوي التفكير في ذلك، لكن الكلمات انزلقت خارجة مني. وجدت نفسي أفكر بصوت مرتفع على نحو مقلق نوعًا ما، في أثناء جلوسي مع هذا الشخص الضئيل الغريب.

نظر إليَّ، ولاحظت لأول مرة أن عينيه لونهما أزرق أردوازي، مع تجاعيد مضحكة عند ركنيهما تشبه أقدام الطيور.

قال:

- هذا صحيح، لم أفكر في ذلك من قبل. إن الأسلوب

النثري الجيد يقتضي ضمنًا بالطبع التغذية السليمة. هذه نقطة ممتازة... ومع ذلك، كان ثورو يتولى الطهي لنفسه. كان فتى كشافة من نوع ما، على ما أعتقد، ولديه شارة للتفوق في المطبخ. ربما كان يأخذ معه إلى الغابة لحم الخنزير المقدد من إنتاج شركة بيتشنات. أتساءل عمَّن تولى الطهي لستيفنسون، هل كان كامي؟ إن ديوان «حديقة أشعار الطفل» كان في الواقع حديقة مطبخ من نوع ما، أليس كذلك؟ أخشى أن مشكلة إدارة التموين هذه قد أثقلت عليك بشدة إلى حد كبير. يسعدني أنكِ ابتعدتِ عن ذلك.

أخذ كل هذا يبدو معقدًا للغاية بالنسبة إليَّ. أدوِّن الأمر كما أتذكره، ربما على نحو غير دقيق. باتت أيامي في العمل مربيةً بعيدة للغاية الآن، وما يشغلني هو المنطق السليم، لا التلميحات الأدبية. نطقت بشيء ما من هذا القبيل.

كرر قائلًا:

– المنطق السليم؟ رباه، يا سيدتي، إن المنطق السليم هو أندر شيء وجودًا في العالم. لا أتمتع به، ولا أعتقد أن شقيقكِ يتمتع به، تبعًا لحديثكِ عنه. إن بوك هنا يتمتع به. لاحظي كيف يهرول على جانب الطريق، ويراقب المناظر الطبيعية، ويهتم بشؤونه الخاصة. لم أرَه يشتبك

في قتال على الإطلاق حتى الآن. أتمنى لو أن بوسعي قول الشيء ذاته عن نفسي. سميته على اسم بوكاتشيو، ليذكِّرني بقراءة كتاب «ديكاميرون» يومًا ما.

قلت:

- بالحكم من خلال طريقة حديثك، فمن المفروض أن تكون أنت أيضًا كاتبًا متمكنًا.

- إن المتحدثين لا يكتبون أبدًا، بل يستمرون في الحديث.

حل الصمت لوقت طويل. أعاد السيد ميفلين إشعال غليونه، وراقب المناظر الطبيعية بعين ثاقبة. أمسكت المقود بتراخٍ، وسارت بيج بوقع خطى ثابتة. أصدرت العربة صريرًا موسيقيًّا، وافترشت شمس ما بعد الظهيرة الغنية عرض الطريق. مررنا بمزرعة أخرى، لكنني لم أقترح التوقف، لأنني شعرت بأنه يتعين علينا المضي قدمًا. بدا ميفلين مستغرقًا في التأمل، وبدأت أتساءل بقدر من القلق، كيف ستنتهي المغامرة؟ كان هذا الرجل الضئيل البارع على نحو غريب، مربكًا بعض الشيء. عبر سلسلة التلال التالية، كان بوسعي رؤية برج كنيسة جرينبراير، يتلألأ باللون الأبيض.

سألته أخيرًا:

– هل تعرف هذه المنطقة من البلاد؟

– ليس هذا الجزء بالتحديد. لقد ترددت على بورت فيجور كثيرًا، لكن حينها كنت أسلك الطريق الممتد بطول الخليج. أعتقد أن هذه القرية الموجودة أمامنا هي جرينبراير؟

قلت:

– أجل، تبلغ المسافة من هناك حتى بورت فيجور ثلاثة عشر ميلًا تقريبًا. كيف تتوقع العودة إلى بروكلين؟

قال بغموض:

– أوه، بروكلين؟ أجل، لقد نسيت أمر بروكلين للحظة. كنت أفكر في كتابي. حسنًا، أعتقد أنني سأستقل القطار من بورت فيجور. المشكلة هي أنه لا يمكنكِ الوصول إلى بروكلين أبدًا، من دون المرور عبر نيويورك. الأمر رمزي، على ما أعتقد.

ساد الصمت مرة أخرى. أخيرًا، قال:

– هل توجد بلدة أخرى بين جرينبراير وبورت فيجور؟

قلت:

– أجل، شيلبي. تبعد خمسة أميال تقريبًا من جرينبراير.

قال:

- ستكون هذه هي أبعد مسافة تصلين إليها الليلة. سأطمئن على وصولكِ بأمان إلى شيلبي، ثم أتوجه إلى بورت فيجور. آمل أن يكون هناك نُزل لائق في شيلبي، حيث يمكنكِ المبيت الليلة.

تمنيت ذلك أنا أيضًا، لكنني لم أكن لأجعله يرى أن حماسي بات أقل قوة بعض الشيء، مع انقضاء مدة ما بعد الظهيرة. أخذت أتساءل عمَّا يفكر فيه أندرو، وما إذا كانت السيدة ماكنالي قد تركت كل شيء مرتبًا على نحو جيد. مثل معظم السويديين، كان لا بد من مراقبتها، وإلا كانت تترك عملها من دون إنجازه كاملًا. كما لم أعول كثيرًا على ابنتها روزي لأداء الأعمال المنزلية بكفاءة. تساءلت عن نوع الوجبات التي سيحصل عليها أندرو. وعلى الأرجح، سيستمر في ارتداء ملابسه الداخلية الصيفية، على الرغم من أنني ذكَّرته بالفعل بخصوص تغييرها. كما أن هناك الدجاج...

حسنًا، لقد تجاوزت نقطة اللاعودة الآن، ولم يعد هناك ما يمكن القيام به.

لدهشتي، تكهن الضئيل ذو اللحية الصهباء بقلقي، فقال بلطف:

- لا تقلقي بشأن الحكيم الآن، إن الرجل الذي يقبض أتعابه الأدبية لن يتضور جوعًا. قسمًا بروح جون موراي، يمكن لناشريه أن يرسلوا إليه طاهيًا، إذا استلزم الأمر! هذه عطلة لك، فلا تنسي ذلك.

وبهذا الشعور المبهج في ذهني، نزلنا التل بهدوء متجهين نحو جرينبراير.

أعتقد أنني في مثل جرأة معظم الناس تقريبًا، لكن أعترف أنني ترددت بعض الشيء أمام فكرة مواجهة مختلف الأشخاص الذين أعرفهم في جرينبراير بوصفي مالكة عربة كتب، ورفيقة بائع كتب متجول. كما تذكرت أيضًا أنه إذا حاول أندرو تتبعنا، فسيكون من الأفضل لي الابتعاد عن الأنظار. لذلك، بعد أن أخبرت السيد ميفلين بشعوري حيال الأمر، اندفعت داخل العربة واستلقيت مستريحة على الفراش. انضم إليَّ بوك، كلب الترير، وتمددت هناك في راحة كبيرة للعقل والجسد، بينما نسير الهوينى لنزول المنحدر. التمعت الشمس من خلال كوة السقف الصغيرة، فأضفت لونًا ذهبيًّا على مقلاة من الصفيح مُعلقة أعلى موقد الطهي. كانت صورًا لمؤلفين مُعلقة هنا وهناك، ولاحظت وجود قصاصة باهتة مُعلقة من إحدى الصحف، عنوانها:

بائع كتب متجول يلقي محاضرة عن الشعر.

قرأت الموضوع بأكمله. يبدو أن البروفيسور (بدأت أطلق عليه ذلك، إذ إن اللقب علق في ذهني لملاءمته له) ألقى محاضرة في كامدن، بنيوجيرسي، حيث أكد أن تينسيون كان شاعرًا أعظم من والت ويتمان، وأضفى الداعمون لشاعر كامدن الإثارة على الأمسية بإطلاق الصواريخ. يبدو أن كبير تلاميذ ويتمان في كامدن هو السيد تراوبيل، وكان السيد ميفلين قد بدأ الشجار بالتأكيد على أن تينيسون أيضًا له «أتباع مثل تراوبيل». فكرت بينما أنا مستلقية في هدوء، يهدهدني دوران العجلات: «يا له من مخلوق غريب، هذا البروفيسور!».

جرينبراير بلدة صغيرة مترامية، بُنيت حول مرج عمومي كبير. أخبرني ميفلين أن الخطة العامة التي يتبعها في البلدات هي إيقاف المكتبة المتنقلة أمام المتجر الرئيسي أو الفندق، وبعد أن يتجمع حشد صغير، يرفع سدائل العربة ويوزع بطاقاته، ويلقي خطبة عن قيمة الكتب الجيدة. استلقيت مختبئة في الداخل، لكنني استنتجت من الأصوات أن هذا هو ما يحدث. توقفنا، وسمعت أصوات همهمات متزايدة وضحكات بالخارج، ثم تكة عند رفع جانبَي العربة. سمعت صوت ميفلين الحاد الأخنف بعض

الشيء، وهو يدلي بتعليقات مضحكة بينما يوزع البطاقات. بدا من الواضح أن بوك كان معتادًا تمامًا هذا النظام، فعلى الرغم من أن ذيله أخذ يهتز برفق عندما بدأ البروفيسور في الحديث، فإنه رقد في سلام، نائمًا عند قدمي.

قال السيد ميفلين:

- يا أصدقاء، هل تذكرون نكتة آيب لينكولن عن الكلب؟ قال آيب: «إذا أسمينا الذيل ساقًا، فكم ساقًا لدى الكلب؟». تجيبون قائلين: «خمس»، ويقول آيب: «لا، لأن تسمية الذيل ساقًا لا تجعله ساقًا». حسنًا، هناك كثير منَّا في حالة ذيل ذلك الكلب نفسها. إنَّ تسميتنا رجالًا لا تجعلنا رجالًا. لا يحق لمخلوق على وجه الأرض أن يعتقد أنه إنسان، إذا لم يكن يعرف كتابًا واحدًا جيدًا على الأقل. إن الرجل الذي يقضي كل مساء وهو يمضغ التبغ في المتجر غير جدير بتلقي إشارات خالق رحيم. الرجل الذي لديه بعض الكتب الجيدة على رفه، يسعِد زوجته، ويمنح أطفاله صفقة عادلة، ومن المرجح أن يكون هو نفسه مواطنًا أفضل. ما رأيك في ذلك، أيها الكاهن؟

سمعتُ الكاهن كين، قس الكنيسة الميثودية، بصوته العميق يقول:

- أنت محق تمامًا، يا بروفيسور! أخبِرنا المزيد عن الكتب. أنا أوافقك تمامًا!

على ما يبدو، انجذب السيد كين إلى منظر المكتبة المتنقلة، وسمعته يهمهم لنفسه وهو يسحب كتابًا أو كتابين من على الأرفف. كم كان سيتفاجأ، لو عرف أنني داخل العربة! اتخذت الاحتياط، وأغلقت مزلاج الباب في الخلف، وأسدلت الستائر. بعد ذلك، تسللت عائدة إلى الفراش. بدأت أتخيل مدى سخافة الموقف إذا وصل أندرو إلى المكان.

قال صوت البروفيسور:

- لقد اعتدتم جميعًا مندوبي المبيعات والباعة المتجولين والأشخاص الذين يبيعون جميع أنواع سقط المتاع، من المكانس إلى الموز. لكن كم مرة يأتي أي شخص إلى هنا كي يبيعكم الكتب؟ أعتقد أن لديكم مكتبتكم العامة في البلدة، لكن هناك بعض الكتب التي يجب أن يمتلكها الناس. إن جميعها لديَّ هنا، من الكتب المقدسة إلى كتب الطهي. سوف تتحدث عن نفسها. اقترِبوا من الأرفف يا أصدقاء، وانتقوا واختاروا.

سمعت الكاهن يسأل عن ثمن شيء وجده على الأرفف، وأعتقد أنه اشتراه. لكن طنين الأصوات حول جوانب

المكتبة المتنقلة كان مهدِّئًا للغاية، وعلى الرغم من اهتمامي بما يجري، أخشى أنني خلدت إلى النوم. لا بد أنني كنت متعبة جدًّا، على أي حال، لم أشعر بالعربة على الإطلاق وهي تتحرك مرة أخرى. قال البروفيسور إنه نظر عبر النافذة الصغيرة من مقعد السائق، ورآني مستغرقة في النوم. أول ما انتبهت له بعد ذلك هو أنني استيقظت فزعة لأجد نفسي أتحرك على مهل وسط الظلام. كان بوك لا يزال مستلقيًا على قدمي، وتعالى رنين موسيقي خافت من الدلو الذي كان يصطدم بشيء ما بين حين وآخر أسفل العربة. جلس البروفيسور في الأمام، وقد تدلى مصباح مضاء من قمة سقف العربة. أخذ يدندن لنفسه أغنية غريبة، لها نغمة غريبة رتيبة:

عند مضيق لا بيروز الهادئ تحطمت سفينتي
مباشرةً بجوار الشاطئ
لذا عقدت العزم على التجوال
واستكشاف كل المناطق
تا را را فا لا لال
تا را را فا لا لي
لذا عقدت العزم على التجوال
لاستكشاف كل المناطق!

قفزت من الفراش، واصطدمت قصبة ساقي بشيء ما، فانطلقت مني صيحة مرتفعة. توقفت المكتبة المتنقلة، ودفع البروفيسور النافذة المنزلقة الموجودة خلف مقعد السائق.

قلت:

- يا للسماء! يا إلهي، كم الساعة الآن؟

- لقد اقترب وقت العشاء للغاية، على ما أعتقد. لا بد أنك خلدت إلى النوم بينما كنت آخذ الأموال من الدهماء. لقد جنيت لك ما يقرب من ثلاثة دولارات. لنتوقف على جانب الطريق، ونتناول بعض الطعام.

قاد بيجاسوس إلى أحد جانبَي الطريق، ثم أراني كيفية إضاءة المصباح المتأرجح المعلق أسفل كوة السقف. قال:

- لا جدوى من إشعال الموقد في أمسية جميلة مثل هذه. سأجمع بعض الخشب، ويمكننا الطهي في الخارج. أخرِجي سلة طعامكِ، وسوف أُشعِل النار.

حل بيجاسوس من العربة، وربطها إلى شجرة، ثم أعطاها كيسًا من الشوفان معلقًا فوق أنفها. بعد ذلك، بحث عن بعض الأغصان، وأشعل النيران في لمح البصر. خلال

خمس دقائق، وضعت لحم الخنزير المقدد والبيض المخفوق في مقلاة حارة، وأخرج هو دلوًا من الماء من البراد أسفل الفراش، وشرع يُعِد الشاي.

لم يسبق وأن استمتعت بنزهة إلى هذا الحد من قبل! كانت أمسية خريفية مثالية، باردة من دون ريح، بسماء حالكة السواد، وقد ظهرت حافة ضئيلة للقمر الجديد، كقُلامة ظفر. تناولنا البيض ولحم الخنزير المقدد، وأتبعنا ذلك بالشاي والحليب المكثف، ثم تلا ذلك الخبز والمربى. اشتعلت النيران الصغيرة بالزرقة والدفء، وجلسنا على جانبيها بينما لعق بوك المقلاة وتناول فتات الخبز.

سألني:

- هل هذا خبزكِ الذي صنعتِه بنفسكِ، يا آنسة ماكجيل؟

قلت:

- أجل، حسبت منذ عدة أيام أنني خبزت أكثر من أربعمائة رغيف سنويًا، على مدار الخمسة عشر عامًا الماضية. هذه أكثر من ستة آلاف رغيف خبز. يمكنهم كتابة ذلك على شاهد قبري.

قال ذو اللحية الصهباء:

- إن فن صناعة الخبز سر سامٍ مثل سمو فن كتابة السونيتات. أما بسكويتكِ الساخن فيمكن عدُّه قصائد أقصر، على ما أعتقد، ربما قصيدة ثُمانية الأبيات. يا لها من مجموعة مختارات أدبية، أو مجموعة ترانيم إن كنتِ تفضلين هذا التعبير!

قلت:

- الكعك كعك، والغرب غرب.

وفوجئتُ تمامًا من براعتي، إذ لم يسبق أن تفوهت بمثل ذلك التعليق لأندرو طوال خمس سنوات.

قال:

- أرى أنكِ مطلعة على كيبلينج.

- أوه، أجل، إن كل مربية مطلعة عليه.

- أين، ولدى مَن عملتِ مربية؟

- كنت في نيويورك، مع أسرة أحد سماسرة البورصة الأثرياء. كان هناك ثلاثة أطفال. اعتدت اصطحابهم للتمشية في سنترال بارك.

سأل فجأة:

- هل سبق لكِ أن ذهبتِ إلى بروكلين؟

أجبته:

- لا.

قال:

- آه! هذه هي المشكلة تحديدًا. إن نيويورك هي بابل، أما بروكلين فهي المدينة المقدسة الحقيقية. نيويورك هي مدينة الحسد، والعمل المكتبي، والصخب، وبروكلين هي منطقة المساكن والسعادة. إنه أمر غريب: سكان نيويورك المساكين المرهقون يتجرؤون على النظر بتعالٍ إلى بروكلين بموقعها المنخفض وسكانها المحبين لمنازلهم، بينما هي في الواقع الجوهرة الثمينة التي تتعطش إليها أرواحهم، من دون أن يدركوا ذلك أبدًا. برودواي: فكِّري في مدى رمزية الاسم، الذي يعني الطريق الواسع. «واسع هو الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك!» لكن الطرق ضيقة في بروكلين، وهي تؤدي إلى مدينة الرضا السماوية. سنترال بارك: هاك، مركز الأشياء، محاطة بجدران من الكبرياء. لكَم تفوقها بروسبيكت بارك كثيرًا، حيث توفر إطلالة جميلة على تلال التواضع! ليس ثمة أمل لسكان نيويورك، إذ إنهم يفخرون بذنوبهم التي تناطح السماء، لكن في بروكلين هناك حكمة المتواضعين.

- إذن فأنت تعتقد أنني لو عملت مربية في بروكلين، كنت سأشعر بالرضا الشديد، لدرجة أنني لم أكن سآتي مع أندرو أبدًا، وأجمع مختاراتي المؤلفة من ستة آلاف رغيف من الخبز، والقصائد الأقصر؟

لكن البروفيسور المتقلب كان قد انتقل بالفعل إلى وجهات نظر أخرى، ولم يدع الجدل يحبطه.

اعترف قائلًا:

- بالطبع فإن بروكلين مكان قذر في الواقع، لكنها بالنسبة إليَّ ترمز إلى حالة ذهنية، في حين أن نيويورك ليست سوى حالة مادية. كما ترين، كنت صبيًّا في بروكلين، وفي نظري، ما زالت تجرجر سحب المجد في أعقابها. عندما أعود إلى هناك وأبدأ العمل على كتابي، سأكون سعيدًا مثل نبوخذ نصر حينما ترك العشب، وعاد إلى تناول الشاي والفطائر. سأطلق عليه «الأدب بين المزارعين»، لكن هذا عنوان سيئ. أود أن أقرأ لك بعض ملاحظاتي التي دوَّنتها للكتاب.

أخشى أنني لم أنجح في إخفاء تثاؤبي جيدًا. في الحقيقة، غلبني الشعور بالنعاس، وكان الجو باردًا.

قلت:

- أخبِرني أولًا، أين نحن بحق السماء، وكم الساعة؟

أخرج ساعة جيب، وقال:

- إنها الساعة التاسعة، ونحن على بُعد ميلين تقريبًا من شيلبي، على ما أعتقد. ربما من الأفضل أن نمضي في طريقنا. أخبروني في جرينبراير أن فندق جراند سنترال في شيلبي مكان جيد كي نتوقف عنده. لذا لم أكن متلهفًا على الوصول إلى هناك، فهو يبدو شبيهًا جدًّا بنيويورك اللعينة.

جمع أواني الطهي وأعادها إلى المكتبة المتنقلة، وشد بيجاسوس إلى العربة مرة أخرى، وربط بوك إلى مؤخرة العربة. ثم أصر على إعطائي دولارين وثمانين سنتًا، كان قد جمعها في جرينبراير. في الواقع، شعرت بالنعاس بدرجة أشد من أن أبدي الاحتجاج، وبالطبع فقد كان المبلغ ملكي على أي حال. تحركنا عبر الطريق المظلم والصامت بين غابات الصنوبر، والصرير يتعالى من العربة. أعتقد أنه تحدَّث بطلاقة عن رحلته بوصفه حاجًّا بين مُزارعي اثنتي عشرة ولاية، لكن (لأكون صادقة) فقد استغرقت في النوم على طرفي من المقعد. استيقظت عندما توقفنا أمام الفندق الوحيد في شيلبي، وهو نُزل ريفي عادي غير مثير للإعجاب، على الرغم من اسمه الغريب.

تركته يودع المكتبة المتنقلة والحيوانات في مكانها الليلة، بينما حجزت غرفة. ما إن استلمت مفتاحي من الموظف، حتى ولج هو الردهة القذرة.

قلت:

- حسنًا، يا سيد ميفلين، هل سأراك في الصباح؟

قال:

- كنت أنوي المضي قدمًا إلى بورت فيجور الليلة، لكن لما كانت تبعد ثمانية أميال كاملة (كما أخبروني)، أظن أنني سأبيت هنا مؤقتًا. أعتقد أنني سأدخل غرفة التدخين، وأعرِّفهم ببعض الكتب الجيدة. لن نودِّع بعضنا بعضًا حتى الغد.

كانت غرفتي لطيفة ونظيفة (إلى حد ما). حملت حقيبتي معي إلى الطابق العلوي، وأخذت حمامًا ساخنًا. بينما كنت أنام، سمعت صوتًا حادًّا يتصاعد من الأسفل، يتخلله ضحك ذكوري. كان الحاج يهدي مزيدًا من الأشخاص!

الفصل السادس

راودني شعور غريب بالحيرة عندما استيقظت صباح اليوم التالي. بدت الغرفة العارية بالسجادة المصنوعة من الخرق بلونَيها الأحمر والأزرق، وطقم الحمام الخزفي الأخضر اللون، غريبة للغاية. سمعت ساعة تدق في الردهة بالخارج. فكرت: «يا إلهي! لقد تأخرت عن موعد استيقاظي قرابة ساعتين. ماذا سيفعل أندرو بشأن الإفطار، بحق السماء؟». بعد ذلك، حينما هُرعت نحو النافذة، رأيت المكتبة المتنقلة الزرقاء بأحرفها الحمراء المدهشة، واقفة في الفناء، وتذكرت على الفور. نظرت بحرص من خلف ستارة النافذة، ورأيت البروفيسور مسلحًا بعلبة من الطلاء، يمسح اسمه من على جانب العربة، وبدا من الواضح أنه ينوي استبداله باسمي. كان ذلك شيئًا لم يطرأ على ذهني، ومع ذلك، فمن المستحسن أن أستفيد من ذلك على أفضل نحو ممكن.

ارتديت ملابسي على الفور، وأعدتُ حزم حقيبتي، وهُرعت إلى الطابق السفلي لتناول الإفطار. كانت الطاولة الطويلة شبه خالية، لكن رجلًا أو رجلين جالسين على الطرف الآخر رمقاني بفضول. عبر النافذة، رأيت اسمي يكبر بأحرف حمراء ضخمة على جانب العربة، بينما البروفيسور يجتهد في استخدام فرشاته. وعندما انتهيت من تناول قهوتي مع الفاصوليا ولحم الخنزير المقدد، وجدت الأمر مسليًا عندما لاحظت أن البروفيسور قد أزال السطر المتعلق بشكسبير وتشارلز لام وما إلى ذلك، واستبدل به كلمات جديدة. أصبحت اللافتة تقول الآن:

مكتبة هـ. ماكجيل المتنقلة
كتب جيدة للبيع
كتب الطهي تخصصنا
استفسِر بالداخل

بدا واضحًا أنه لا يثق بإلمامي بالكلاسيكيات.

سددت فاتورتي عند المكتب، وحرصت أيضًا على دفع ثمن بيات الحصان والعربة خلال الليلة. ثم مشيت إلى ساحة الإسطبل، حيث وجدت السيد ميفلين يتأمل عمل يده برضا. كان قد جدد كل الأحرف الحمراء، التي التمعت ببريق فائق تحت شمس الصباح.

قلت:

- عمت صباحًا.

ردَّ إليَّ التحية.

صاح قائلًا:

- هاكِ! إن العربة ملككِ حقًّا! والعالم بأسره يمتد أمامكِ! كما أن لديَّ مزيدًا من المال لكِ. بعت بعض الكتب الليلة الماضية. أقنعت مدير الفندق بشراء عدة مجلدات من أعمال أوليفر هنري من أجل رف غرفة التدخين، كما بعت للطاهية «كتاب طهي والدورف». ربَّاه! ألم تكن قهوتها شنيعة؟ آمل أن يساعد كتاب الطهي على تحسينها.

ناولني ورقتين ماليتين مهلهلتين، وحفنة من العملات الصغيرة. أخذتها بجدية، ووضعتها في حقيبتي. في الواقع، لم يكن هذا سيئًا على الإطلاق: أكثر من عشرة دولارات في أقل من أربع وعشرين ساعة.

قلت:

- يبدو أن المكتبة المتنقلة بمنزلة منجم ذهب.

سألني:

- أي اتجاه تعتقدين أنكِ سوف تسلكينه؟

أجبته قائلة:

- حسنًا، بما أنني أعرف أنك تريد الذهاب إلى بورت فيجور، فربما يجدر بي أن أقلك إلى ذلك الاتجاه.

- هذا جيد! كنت أتمنى أن تقولي ذلك. أخبروني أن الحافلة المتوجهة إلى بورت فيجور لن تتحرك قبل الظهيرة، وأعتقد أن التسكع هنا طوال اليوم من دون كتب أبيعها سوف يقتلني. سأصبح على ما يرام ما إن أستقل القطار.

كان بوك مقيدًا في ركن من الفناء، تحت الباب الجانبي للفندق. ذهبت لإطلاق سراحه، في حين ألبس البروفيسور بيج عدة الفرس. بينما انحنيت لفك السلسلة من طوقه، سمعت شخصًا يتحدث عبر الهاتف. كانت ردهة الفندق أعلى رأسي مباشرةً، والنافذة مفتوحة.

- ماذا قلت؟

- ...

- ماكجيل؟ أجل، يا سيدي، سجَّلَت اسمها هنا الليلة الماضية. إنها هنا الآن.

لم أنتظر سماع المزيد. حللت بوك، وأسرعت لأخبر ميفلين. التمعت عيناه.

ضحك قائلًا:

- من الواضح أن الحكيم في أعقابنا. حسنًا، لننطلق في طريقنا. لا أدري ما الذي يمكنه أن يفعله إذا لحق بنا.

شرع الموظف يناديني من النافذة:

- آنسة ماكجيل، شقيقكِ على الهاتف، ويطلب التحدث إليكِ.

صعدت إلى المقعد، وأجبته قائلة:

- أخبِره أنني مشغولة.

لم يكن ردًّا دبلوماسيًّا، على ما أخشى، لكن الابتهاج الذي شعرت به بسبب الصباح البارد وروح المغامرة، كان أكبر من أن أتوقف للتفكير في رد أفضل. طقطق ميفلين بلسانه لبيج، وانطلقنا.

يمتد الطريق من شيلبي إلى بورت فيجور عبر منحدرات التلال العريضة المتجهة نحو الخليج، وعن يسارنا بالأسفل، امتد النهر متلألئًا في الوادي. كان منظرًا طبيعيًّا مثاليًّا: الغابة بأكملها من البرونز والذهب، والسحب بيضاء

كالثلج، تبدو كما لو أنها غسيل سماوي مُعلَّق للتهوية، والشمس دافئة، تسبح على نحو رائع وسط قنطرة من الزرقة البديعة. امتلأ قلبي بالسعادة بالفعل. للمرة الأولى، على ما أعتقد، عرفت ماهية شعور أندرو في رحلات تسكعه تلك. لماذا ظل كل هذا غائبًا عني من قبل؟ لماذا أعماني السر السامي لصناعة الخبز طوال هذا الوقت عن أسرار الشمس، والسماء، والريح بين الأشجار؟ مررنا بمزرعة بيضاء بالقرب من الطريق. جلس المُزارع إلى جذع شجرة عند البوابة، ينحت عصا ويدخن غليونه. عبر نافذة المطبخ، كان بإمكاني رؤية امرأة تلمِّع الموقد. أردت أن أصيح: «أيتها المرأة الحمقاء! اتركي موقدكِ، وقدوركِ، وأوانيكِ، وأعمالكِ المنزلية، حتى ولو ليوم واحد فقط! اخرجي وانظري إلى الشمس في السماء، والنهر في الأفق!». نظر المُزارع إلى المكتبة المتنقلة من دون اهتمام في أثناء مرورنا، ثم تذكرت مهمتي بوصفي موزعة للأدب. جلس ميفلين واضعًا إحدى قدميه على حقيبته المنتفخة، يتأمل قمم الأشجار وهي تتمايل في النسيم البارد. بدا هائمًا بعيدًا في تأمل صباحي. ألقيت بالمقود، وبادرت المُزارع بالحديث.

- صباح الخير، يا صديق.

قال بحزم:

- طاب صباحكِ، يا سيدتي.

قلت:

- أنا أبيع الكتب. أتساءل عمَّا إذا كان هناك شيء تحتاج إليه؟

قال:

- شكرًا، يا سيدتي، لقد اشتريت مجموعة كبيرة من الكتب العام الماضي، ولا أعتقد أنني سوف أقرأها على الإطلاق في حياتي هذه. مجموعة كاملة من «الخطب الجنائزية»، تركها لي أحد المندوبين مقابل دولار شهريًّا. يمكنني التأهل الآن بوصفي نادبًا مخلصًا في أي تجمع عند فراش الموت، على ما أعتقد.

قلت:

- أنت بحاجة إلى بعض الكتب التي تعلِّمك كيف تعيش، لا كيف تموت. ماذا عن زوجتك، ألن تستمتع بكتاب طهي جيد؟ وماذا عن بعض القصص الخيالية للأطفال؟

قال:

- ليباركني الرب، ليس لديَّ زوجة. لم أكن رجلًا مقدامًا

قَطُّ، وأعتقد أنني سوف أقصر ملذاتي الحزينة على تلك «الخطب الجنائزية» لمدة من الوقت.

صحت قائلة:

- حسنًا، انتظِر لحظة الآن! لديَّ شيء مناسب تمامًا لك.

تفحصت الرفوف ببعض العناية، وتذكرت أنني رأيت نسخة من كتاب «تأملات عازب». نزلت ورفعت سديلة العربة (غمرني شعور بالإثارة الشديدة لقيامي بذلك لأول مرة بمفردي)، وفتشت عن الكتاب. نظرت داخل الغلاف، ورأيت حرفَي ١ت بخط ميفلين المنمق.

قلت:

- هاك، سأبيعك هذا مقابل ثلاثين سنتًا.

قال بأدب:

- شكرًا جزيلًا، يا سيدتي. لكن بصراحة لا أعرف ما أفعله به. فأنا أعمل على قراءة تقرير حكومي عن سوس الجرب والفطريات، وفيما بين ذلك أقرأ بعضًا من تلك «الخطب الجنائزية»، وفي الحقيقة فإن هذا هو قدر القراءة الذي أنتويه فحسب، هذا، وصحيفة «بورت فيجور كلاريون».

رأيت أنه يعني ذلك بالفعل، لذا صعدت إلى المقعد مرة أخرى. رغبت في التحدث إلى المرأة في المطبخ، التي أطلَّت من النافذة بدهشة، لكنني قررت أنه من الأفضل المضي قدمًا، وعدم إضاعة الوقت. تبادلنا أنا والمُزارع تحية ودية، وتابعت المكتبة المتنقلة طريقها.

كان الصباح جميلًا للغاية، إلى درجة أنني لم أشعر بالرغبة في الحديث، وبما أن البروفيسور بدا غارقًا في التأمل، لم أقُل شيئًا. لكن عندما شرعت بيج تصعد منحدرًا خفيفًا بتمهل، أخرج كتابًا من جيبه فجأة، وبدأ يقرأ بصوت مرتفع. كنت أراقب النهر، ولم ألتفت، لكنني أنصت باهتمام:

- «إن تماوج السحب، واندفاع الريح، ودوران الشمس، وزرقة الخيمة السماوية، وتناوب الفصول، ومجموعات النجوم المتلألئة، جميعها بالتأكيد جزء من وحدة صوفية واحدة متناغمة. في كل مكان، بينما نباشر مهامنا البسيطة، علينا أن نميز بصمة الخطة الكبرى، والنظام السرمدي المتناسق الذي ليست له بداية ولا نهاية، حيث الموت ما هو إلا مقدمة لميلاد جديد، والميلاد نذير مؤكد لموت آخر. نحن البشر عاجزون عن تصور الدافع أو المغزى من كل ذلك، كما يعجز الكلب عن فهم منطق تفكير سيده. فهو يرى أعمال سيده، خيرًا أو

شرًّا، ويهز ذيله. لكن دومًا ما تكون أعمال سيده غامضة بالنسبة إليه. وهذه هي الحال معنا.

بالتالي، أيها الإخوة، دعونا نسِر في الطريق بقلب خفيف. دعونا نمتدح أوراق الشجر النحاسية، والأمواج الهادرة، بينما لا تزال لدينا أعين لنرى، وآذان لنسمع. إن الدهشة الصادقة من جمال العالم الذي لا يوصف هي موقف لائق للباحث. لنكن جميعًا باحثين، تحت أعين الطبيعة الأم».

سألني:

- ما رأيك في هذا؟

قلت:

- إنه عميق بعض الشيء، لكنه جيد للغاية. لم يذكر فيه أي شيء عن السر الغامض لصناعة الخبز!

بدا وجهه خاليًا من التعبير نوعًا ما.

سألني:

- هل تعرفين مَن كتب هذا؟

بذلت جهدًا باسلًا لاستدعاء بعض ذكرياتي عن الأدب من أيام عملي مربيةً.

قلت بنبرة واهنة:

- لقد استسلمت. هل هو كارلايل؟

قال:

- هذا من تأليف أندرو ماكجيل. إنها إحدى فقراته العظيمة التي بدأ يُعاد طبعها في الكتب المدرسية الآن. إن ذلك المزعج يجيد الكتابة.

بدأت أشعر بعدم الارتياح، خشية التعرض لمحاضرة أدبية، لذلك لم أقُل شيئًا، لكنني جعلت بيج تسير الهوينى. لأقول الحقيقة، كنت أكثر فضولًا لسماع البروفيسور يتحدث عن كتابه هو، أكثر من كتاب أندرو. لطالما حرصت على الامتناع عن قراءة أعمال أندرو، إذ كنت أعتقد أنها مملة نوعًا ما.

قال البروفيسور:

- أما بالنسبة إليَّ، فليست لديَّ موهبة فيما يتعلق بفخامة الأسلوب. لطالما كابدت الشعور بأنه من الأفضل قراءة كتاب جيد، بدلًا من تأليف كتاب سيئ. ولقد قرأت كثيرًا من القراءات المختلطة خلال عمري، حتى بات ذهني مليئًا بأصداء وأصوات رجال أفضل. لكن هذا الكتاب الذي يشغلني الآن يستحق أن يُكتب بالفعل، على ما أعتقد، إذ إنه يحمل رسالة خاصة به.

حدق عبر الوادي المشمس بنظرة تكاد تكون حزينة. لمحت الخليج يتلألأ عن بُعد. مالت قبعة البروفيسور الباهتة المصنوعة من قماش التويد فوق إحدى أذنيه، والتمعت لحيته الصغيرة القصيرة باللون الأحمر الزاهي تحت الشمس. بقيت صامتة تعاطفًا معه. بدا مسرورًا لوجود شخص ما يحدِّثه عن كتابه العزيز.

قال:

- إن العالم مليء بالعظماء ممن كتبوا في الأدب، لكنهم جميعًا أنانيون وأرستقراطيون. أديسون، ولام، وهازليت، وإيميرسون، ولويل - تخيري أي واحد تشائينه - جميعهم يتصورون حب الكتب، سرًّا نادرًا ومثاليًّا للنخبة، شيئًا خاصًّا بغرفة المكتب المنعزلة حيث يمكنهم الجلوس بمفردهم ليلًا مع شمعة وسيجار وكأس من الخمر على الطاولة، وكلب سبانيل على السجادة أمام المدفأة. لكن ما أقوله هو، مَن عساه ذهب في أي وقت مضى إلى الطرق الرئيسية والأحراش كي يوصل الأدب إلى الرجل العادي؟ وليقرِّبه من شؤونه ومن قلبه، كما قال أحدهم؟ كلما توغلتِ في الريف لمسافة أبعد، وجدتِ عددًا أقل ونوعية أردأ من الكتب. لقد أمضيتُ سنوات عدة أتجول بقلعة الجريمة

هذه، وأقسم بروح بن عزرا، لا أعتقد أنني وجدت كتابًا جيدًا حقًّا (باستثناء الكتاب المقدس) في أي مزرعة على الإطلاق حتى الآن، ما لم أكن قد وضعته هناك بنفسي. أما زعماء الثقافة، فما الذي يفعلونه لتعليم عامة الشعب القراءة؟ لا جدوى من تدوين قوائم بعناوين الكتب، وتجميع أرفف يبلغ ارتفاعها خمس أقدام، بل يتعين عليك الخروج وزيارة الناس بنفسك، وتوصيل الكتب إليهم، والتحدث مع معلمي المدارس، وإزعاج محرري الصحف الريفية والمجلات الزراعية، وقص الحكايات على الأطفال، ثم شيئًا فشيئًا، تبدأ في جعل الكتب الجيدة تجري في عروق الأمة. ضعي في اعتباركِ أنه عمل عظيم! يبدو الأمر أشبه بحمل الكأس المقدسة إلى بعض هذه المزارع النائية. وأتمنى لو أن هناك ألف مكتبة متنقلة، بدلًا من هذه المكتبة فقط. لم أكن لأتخلى عنها أبدًا، لولا كتابي. لكنني أريد الكتابة عن أفكاري، على أمل إثارة حماس بعض الأشخاص الآخرين أيضًا. لا أعتقد أن ناشرًا في البلد سيقبله!

قلت:

- جرِّب السيد ديكاميرون، لطالما كان لطيفًا للغاية مع أندرو.

لوح بيده على نحو معبر، وصاح قائلًا:

- فكِّري فيما قد يعنيه ذلك، إذا بدأ أحد الأثرياء تمويل صندوق لتجهيز مائة عربة مثل هذه، أو نحو ذلك، للتجول وبيع الكتب عبر هذه المناطق الريفية. سيكون الأمر مجزيًا أيضًا، ما إن تشرعي في ذلك. أجل، قسمًا بروح ويبستر! حضرت اجتماعًا لبائعي الكتب ذات مرة، في أحد الفنادق في نيويورك، وأخبرتهم عن خطتي. لقد سخروا مني، لكنني استمتعت بحمل الكتب في هذه المكتبة المتنقلة والتجول بها، أكثر مما كنت سأستمتع طوال خمسين عامًا من الجلوس في متجر للكتب، أو التعليم في مدرسة، أو الوعظ. إن الحياة غنية بالمذاق، عندما تتجولين عبر الطريق على هذا النحو. تأملي هذا اليوم، مع الشمس، والهواء، والغيوم الفضية. مع ذلك، فأنا أحب الأيام الممطرة أكثر مما سواها. كنت أقف إلى جانب الطريق، وألقي بطانية من المطاط فوق بيج، بينما أتكور مع بوك في الفراش، وأدخن وأقرأ. كنت أقرأ لبوك بصوت مرتفع. انتهينا معًا من رواية «ضابط البحرية إيزي»، وقدر كبير من أعمال شكسبير. إنه كلب محب للاطلاع بشدة. لقد مررنا ببعض التجارب الغريبة في هذه المكتبة المتنقلة.

إن طريق التل من شيلبي إلى بورت فيجور طريق منعزل، إذ إن معظم المزارع تقع في الوادي بالأسفل. لو كنت أعلم، لربما كنَّا سلكنا الطريق الأطول والآهل بالسكان بدرجة أكبر، لكن في الحقيقة استمتعت بالمنظر الواسع، والطريق المنعزل الممتد بلونه الأبيض تحت ضوء الشمس. سرنا عبر الطريق على نحو لطيف للغاية. توقفنا مرة أخرى عند منزل حيث توسَّل ميفلين للحصول على فرصة لممارسة فنه. وجدت الأمر مسلِّيًا للغاية عندما نجح في بيع نسخة من كتاب «حكايات جريم الخيالية» لعانس سليطة اللسان بدعوى أنها سوف تستمتع بقراءة القصص لأبناء وبنات شقيقها الذين سيأتون لزيارتها.

ضحك وهو يعطيني ربع الدولار القذر الذي حصل عليه، وقال:

- يا إلهي، لا يوجد شيء في ذلك الكتاب يضاهي شراستها!

بعد قليل، توقفنا عند نبع على جانب الطريق كي تشرب بيج، واقترحت تناول الغداء. كنت قد حصلت على بعض الخبز والجبن في شيلبي، وبهذا وبعض المربى أعددنا شطائر ممتازة. في أثناء جلوسنا بجوار السياج، مرت الحافلة العمومية في طريقها إلى بورت فيجور. توقفت

على بُعد مسافة قصيرة من الطريق، ثم واصلت طريقها مرة أخرى. رأيت هيئة مألوفة تسير عائدة نحونا.

قلت للبروفيسور:

- ها أنا سأواجه المتاعب الآن، هذا هو أندرو!

الفصل السابع

إن أندرو نحيف، بقدر ما أنا سمينة، وتتهدل ملابسه على جسده على نحو مضحك للغاية. وهو فارع الطول، متثاقل الخطوات، أشعث اللحية، يعتمر قبعة عريضة من صنع «ستيتسون»، ويعاني في الخريف حمى القش بدرجة شديدة. (في الواقع، فإن مقاله عن «حمى القش» هو أفضل شيء كتبه على الإطلاق، على ما أعتقد). حينما سار قادمًا عبر الطريق بخطًى واسعة، لاحظت كيف رفرف سرواله عند كاحليه بينما تنازعته الريح. دفع النسيم لحيته إلى الالتفاف إلى الخلف أسفل ذقنه، وبدا وجهه محتقنًا للغاية بفعل الغضب. لم يسعني سوى أن أجد الأمر مسلّيًا، إذ إنه بدا مضحكًا جدًّا.

همس ميفلين قائلًا:

– إن الحكيم يشبه برنارد شو.

أؤمن دائمًا بالمبادرة بالهجوم.

قلت بمرح:

- صباح الخير، يا أندرو. هل ترغب في شراء أي كتب؟

أوقفت بيجاسوس، ووقف أندرو قليلًا أمام العجلة، جزئيًّا بسبب انقطاع أنفاسه، وفي الغالب بدافع من شعوره بالغضب.

قال بغضب:

- ما هذا الهراء بحق السماء، يا هيلين؟ لقد قُدتِني في مطاردة شيطانية منذ أمس. ومَن هذا... هذا الشخص الذي تقودين العربة برفقته؟

قلت:

- أندرو، لقد نسيت آداب حُسن السلوك. دعني أُقدِّم السيد ميفلين. لقد اشتريت عربته، وسآخذ إجازة وأبيع الكتب. السيد ميفلين في طريقه إلى بورت فيجور، حيث سيستقل القطار إلى بروكلين.

حدق أندرو إلى البروفيسور من دون أن ينبس بكلمة. أدركت من اشتعال عينيه الزرقاوين الفاتحتين أنه غاضب تمامًا، وخشيت أن الأمور ستسوء قبل أن تتحسن. إن

أندرو ليس سريع الغضب، لكنه شخص يصعب التعامل معه بشدة حين يستثار. كما صارت لديَّ الآن فكرة نوعًا ما عن طباع البروفيسور. أخشى أن بعض تعليقاتي جعلته متحاملًا ضد أندرو إلى حد ما، بوصفه شقيقي على أي حال، بعيدًا عن كتابته النثرية الممتازة.

كان ميفلين هو مَن تفوه بالكلمات التالية. خلع قبعته الصغيرة المضحكة، والتمع رأسه العاري كالبيضة. لاحظت ما يشبه حلقة صغيرة من قطرات العرق الضئيلة حول قمة رأسه.

قال ميفلين:

- يا سيدي العزيز، تبدو هذه الأحداث غير اعتيادية بعض الشيء، لكن من السهل رواية الحقائق. لقد اشترت شقيقتك هذه العربة ومحتوياتها، وكنت أرشدها بخصوص نظرياتي المتعلقة بتوزيع الكتب الجيدة. أنت بوصفك أديبًا...

لم يُعِر أندرو البروفيسور أي اهتمام على الإطلاق، ورأيت وجنتَي ميفلين الشاحبتين تتخضبان بالحمرة ببطء.

قال أندرو:

- انظري هنا، يا هيلين، هل تعتقدين أنني أنوي ترك شقيقتي

تجوب أرجاء الولاية برفقة مشرد متجول؟ أقسم بحياتي إنه يجب عليكِ التمتع بحسن التقدير بدرجة أكبر، وفي مثل سنكِ ووزنكِ هذا! عدت إلى المنزل أمس، ووجدت رسالتكِ السخيفة. ذهبت إلى السيدة كولينز، ولم تكن تعرف شيئًا. وذهبت إلى ميسون، فوجدته يتساءل مَن أفسد هاتفه. أعتقد أن ذلك كان من فعلك أنت. كان قد رأى عربتك هذه، ووضعني على الطريق الصحيح. لكن، يا إلهي! لم أعتقد أبدًا أنني سوف أرى امرأة في الأربعين من عمرها تتعرض للاختطاف من قِبَل الغجر!

أوشك ميفلين على التحدث، لكنني لوحت له كي يتراجع.

قلت:

- انظر هنا الآن، يا أندرو، أنت تتسرع في الحديث. إن امرأة في الأربعين (أنت تبالغ، بالمناسبة) جمعت مختارات من ستة آلاف رغيف من الخبز وأهدتها إليك تستحق بعض الاحترام. حينما ترغب أنت في الفرار للقيام بواحدة من جولات التشرد، لا تتردد في ذلك، بينما تتوقع مني البقاء في المنزل، والعمل على زيادة إنتاج البيض في فناء الدواجن. قسمًا بروح سوزان ب. أنتوني، لن أفعل ذلك! هذه هي أول عطلة

حقيقية آخذها منذ خمسة عشر عامًا، وسوف أفعل ما أريده.

فتح أندرو فمه، لكنني هززت قبضتي بإقناع بالغ إلى درجة أنه توقف.

قلت:

- لقد اشتريت هذه المكتبة المتنقلة من السيد ميفلين بعدل وإنصاف، مقابل أربعمائة دولار. هذا هو ثمن ألف وثلاثمائة دستة من البيض تقريبًا (كنت قد حسبت هذا في ذهني، بينما ميفلين يتحدث عن كتابه).

المال مالي، وسأستخدمه بطريقتي. والآن، أندرو ماكجيل، إذا أردت شراء أي كتاب، فيمكنك التفاوض معي، وإلا سأمضي في طريقي. لا تنتظر عودتي قريبًا.

ناولته إحدى بطاقات ميفلين الصغيرة التي كانت داخل جيب على جانب العربة، وأمسكت المقود بين يديَّ. أحسست بالغضب بالفعل، إذ كان أندرو غير منطقي ومهينًا أيضًا.

ألقى أندرو نظرة على البطاقة، ومزقها نصفين. نظر إلى جانب المكتبة المتنقلة، حيث كان دهان الأحرف الجديدة ما زال رطبًا لم يجف.

قال:

- حسنًا، أقسم إنكِ لا بد أن تكوني مجنونة.

انفجر في نوبة من السعال العنيف، آخر آثار حمى القش على ما أعتقد، إذ كانت زهور عصا الذهب لا تزال في المروج. عطس وسعل بعنف، ما زاده غضبًا أكثر من ذي قبل. في النهاية، التفت نحو ميفلين الذي جلس عاري الرأس، محتقن الوجه، وقد التمعت عيناه بشدة. تأمل أندرو هيئته كاملة، بسترته الرثة الفضفاضة ذات الحزام، ودفتر المذكرات البارز في جيبه، والحقيبة المنتفخة تحت قدمه، وحتى نسخة كتاب «السعادة والعُصافة» التي سقطت أرضًا وظل غلافها نحو الأعلى.

قال أندرو:

- انظر هنا يا هذا، لا أعرف بأي خدعة شيطانية استدرجت شقيقتي كي تذهب للتسكع في عربة بائع متجول، لكنني أعرف هذا: إذا كنت قد احتَلْت عليها لتسلبها أموالها، فسوف أبلغ عنك الشرطة.

حاولت التدخل بكلمة احتجاج، لكن الأمور كانت قد تجاوزت الحدود. بات البروفيسور غاضبًا الآن بقدر غضب أندرو نفسه.

قال:

- قسمًا بروح بيرس بلومان، توقعت مقابلة رجل من رجال الأدب، ومؤلف هذا الكتاب.

رفع نسخة كتاب «السعادة والعُصافة»، وواصل قائلًا:

- لكني أرى أنني كنت مخطئًا. أقول لك يا سيدي، إن الرجل الذي يهين شقيقته أمام شخص غريب، كما فعلت أنت، هو أحمق ووغد.

ألقى الكتاب فوق السياج، وقبل أن أتمكن من التفوه بكلمة، قفز من فوق العجلة، وهُرع متوجهًا نحو مؤخرة العربة.

قال ولحيته الصهباء الصغيرة ترتعش:

- انظر هنا، يا سيدي. إن شقيقتك في سن الرشد، وتتصرف بمحض إرادتها. قسمًا بروح المعمدان، لا ألومها على رغبتها في الحصول على إجازة، إذا كانت هذه هي الطريقة التي تعاملها بها. إنها لا تمثل شيئًا بالنسبة إليَّ، كما لا أمثل أنا شيئًا بالنسبة إليها، لكنني أنتوي تعليمك. فلترفع قبضتيك كي ألقنك درسًا!

فاق هذا قدرتي على الاحتمال. أعتقد أنني صرخت بصوت مرتفع، وشرعت أترجل من العربة. لكن قبل أن

أتمكن من فعل أي شيء، أخذ كِلا المتعصبَين يتبادلان الضربات. رأيت أندرو يحاول توجيه ضربة إلى ميفلين بعنف، وضربه ميفلين على ذقنه مباشرةً. سقطت قبعة أندرو على الطريق. وقفت بيج في هدوء، لكن بوك بدا كما لو أنه سيمسك بساق أندرو، لكنني قفزت من العربة وأمسكت به.

بدا مشهدًا غريبًا بكل تأكيد. أعتقد أنه كان من المفروض أن أفرك يديَّ وأُصاب بالهستيريا، لكن في الواقع كدت أجد الأمر مسلِّيًا، إذ كان سخيفًا للغاية. حمدًا للرب أن الطريق كان مهجورًا.

كان أندرو يفوق البروفيسور طولًا بمقدار قدم، لكنه كان أخرق نوعًا ما، يفتقر إلى التناسق الحركي، ضعيف العضلات، في حين كان الضئيل ذو اللحية الصهباء نحيلًا وقويًّا كالقط. كما أن الغضب اشتد بأندرو إلى درجة أفقدته السيطرة على نفسه، بينما كان غضب ميفلين من النوع الهادئ الذي ينتصر دومًا. أصاب أندرو صدر وكتفَي الرجل الآخر بضربتين متخبطتين، لكن في غضون ثلاثين ثانية، تلقَّى لكمة أخرى على ذقنه، تلتها أخرى على أنفه أوقعته إلى الخلف.

جلس أندرو على الطريق يفتش عن منديل، ووقف ميفلين

محدقًا إليه، لكن بدا عليه الحرج الشديد. لم ينبس أيٌّ منهما بكلمة. تحرر بوك مني، وراح يتواثب ويتراقص حول قدمَي ميفلين، كما لو أن الأمر برمته لعبة. بدا مشهدًا عجيبًا.

نهض أندرو وهو يمسح أنفه النازف.

قال:

- أقسم بحياتي إنني أكاد أحترمك لتلك اللكمة. لكن قسمًا سوف أبلغ عنك الشرطة لاختطافك شقيقتي. يا لك من مجرم!

لم يقُل ميفلين شيئًا.

قلت:

- لا تكن أحمق، يا أندرو. ألا ترى أنني أرغب في خوض مغامرة صغيرة خاصة بي؟ عد إلى المنزل، واخبز ستة آلاف رغيف من الخبز، وبحلول وقت انتهائك من ذلك، سأعود مرة أخرى. أعتقد أن رجلين في مثل سنيكما عليهما أن يخجلا من نفسيهما. أنا ذاهبة إلى بيع الكتب.

وبهذا صعدت إلى المقعد وطقطقت بلساني لبيجاسوس. ظل أندرو وميفلين وبوك واقفين على الطريق.

ملأني الغضب حتى النخاع. أحسست بالغضب حيال كِلا الرجلين لتصرفهما مثل تلاميذ المدارس. غضبت من أندرو لكونه غير عقلاني إلى هذه الدرجة، ومع ذلك أُعجبت به من أجل هذا بطريقة ما. غضبت من ميفلين لأنه أدمى أنف أندرو، ومع ذلك شعرت بالتقدير للروح التي أقدم بها على ذلك. غضبت من نفسي للتسبب في كل هذه المتاعب، كما شعرت بالغضب حيال المكتبة المتنقلة. لو كان سهلًا وجود جرف صخري ملائم، لدفعت العربة القديمة من فوقه. لكنني بتُّ متورطة في الأمر الآن، وعليَّ المضي قدمًا فحسب. صعدت المنحدر على مهل، ثم رأيت بورت فيجور ممتدة أمامي، والخليج الأزرق العريض الممتد.

سارت العربة في طريقها بصريرها اللطيف، وسرعان ما هدأتني الشمس الناعمة وحفيف الريح. بدأت أتذوق الملح في الريح، وحام نورسان أو ثلاثة فوق المروج. مثل جميع النساء، ذاب مزاجي الغاضب وتحول إلى رد فعل من الحنان المبالغ فيه، وبدأت أمدح كلًّا من أندرو وميفلين في قلبي. ما أحسن أن يكون لديَّ شقيق حريص على صالح شقيقته وسُمعتها! ومع ذلك، كم كان البروفيسور الضئيل النحيل رائعًا! كم كان سريعًا في

الاستياء من الإهانة، وكم كان جريئًا في الانتقام من أجل ذلك! كانت قبعته الصغيرة السخيفة ملقاة على المقعد، فالتقطتها بصورة تكاد تشوبها العاطفة. بدت البطانة مهترئة وممزقة. أخرجت مجموعة صغيرة من أدوات الخياطة من حقيبتي في العربة، وعلقت المقود على خطاف، ثم بدأت أخيط الأجزاء الممزقة بينما بيج تواصل السير. فكرت بسعادة في الحياة الغريبة التي قادها السيد ميفلين في «قافلته الثقافية» هذه. تخيلته يخاطب جمهور تلاميذ ويتمان في كامدن، وتساءلت كيف انتهى ذلك الهرج. تخيلته في محبوبته بروكلين، يتجول في بروسبيكت بارك، ويبشر المارين بطريق الصدفة بعقيدته فيما يتعلق بالكتب الجيدة. كم كان حبه المتشدد للأدب مختلفًا عن شعور أندرو الهادئ بالرضا! ومع ذلك، كم كان بينهما كثير من الأشياء المشتركة! سرَّني التفكير في ميفلين وهو يقرأ بصوت مرتفع من كتاب «السعادة والعُصافة»، ويشيد به بشدة، قبل شجاره مع المؤلف مباشرةً وإدماء أنفه. تذكرت أنه كان يتعين عليَّ الحديث مع أندرو بخصوص إطعام الدجاج، وتذكيره بشأن ملابسه الداخلية الشتوية. إن الرجال مخلوقات عاجزة، على الرغم من كل شيء!

انتهيت من إصلاح القبعة وأنا في حالة مزاجية جيدة.

لم أكَد أضعها جانبًا حتى سمعت وقع خطوات سريعة على الطريق خلفي، والتفت ورائي، حيث كان ميفلين يسير ورأسه الأصلع مغطًّى بقطرات صغيرة من العرق، وبوك يهرول بهدوء جوار قدميه. أوقفت بيج.

قلت:

- حسنًا، ماذا حدث لأندرو؟

كان البروفيسور لا يزال يبدو محرجًا بعض الشيء، وقال:

- إن الحكيم شخص عنيد. تجادلنا بعض الشيء من دون نتيجة تُذكر. في الواقع، كدنا نتبادل الضرب مرة أخرى، لكنه اشتم أريج عصا الذهب مرة أخرى، ما جعله يشرع في السعال، ثم بدأ أنفه ينزف ثانيةً. إنه مقتنع بأنني همجي، وقد عبَّر عن ذلك بلغة نثرية ممتازة. في الواقع، أنا معجب به أيَّما إعجاب. أعتقد أنه ينتوي إبلاغ الشرطة عني. أعطيته عنواني في بروكلين في حال ما إذا أراد متابعة الأمر. أظن أنني أسعدته نوعًا ما عندما طلبت منه أن يوقِّع لي نسخة من «السعادة والعُصافة». وجدتها ملقاة في المصرف.

قلت:

- حسنًا، من المؤكد أنكما زوج من المجانين بشدة. يجب

أن يعتلي كلاكما خشبة المسرح، إذ ستشكلان عرضًا جيدًا مثل ويبر وفيلدز. هل منحك توقيعه؟

أخرج الكتاب من جيبه. كُتب عليه بالقلم الرصاص عبارة: «لقد سفكت الدماء من أجل السيد ميفلين. أندرو ماكجيل».

قال ميفلين:

- سوف أقرأ الكتاب مرة أخرى باهتمام متجدد. هل يمكنني الركوب؟

قلت:

- بكل تأكيد. ها هي بورت فيجور أمامنا.

اعتمر قبعته، ولاحظ أن ملمسها بدا مختلفًا، فخلعها مرة أخرى، ثم نظر إليَّ بحرج غريب.

قال:

- أنتِ طيبة للغاية، يا آنسة ماكجيل.

سألته:

- أين ذهب أندرو؟

أجاب ميفلين:

- لقد توجه إلى شيلبي سيرًا على الأقدام. إنه يتمتع بخطًى واسعة ملائمة للسير. تذكر فجأة أنه ترك بعض البطاطس تغلي على النار عصر أمس، وقال إن عليه العودة كي يتولى أمرها. قال إنه يتمنى أن ترسلي إليه بطاقة بريدية بين حين وآخر. أتدرين، إنه يذكِّرني بثورو أكثر من أي وقت مضى.

قلت:

- إنه يذكِّرني بقِدْر طهي محترق. أعتقد أن جميع أواني المطبخ خاصتي ستكون في حالة مروعة عندما أعود إلى المنزل.

الفصل الثامن

إن بورت فيجور بلدة قديمة ساحرة، بُنيت على رأس ممتد داخل الخليج. يمكن للمرء أن يرى على نحو خافت في الأفق طرف لونج آيلاند، التي نظر إليها ميفلين بعينَين لامعتَين. بدا أن ذلك يقرِّبه من بروكلين بدرجة أكبر. تحركت مراكب شراعية عدة عبر مصب النهر في مهب الريح المنعشة، وعبق الجو على نحو طيب برائحة الملح النفاذة. توجهنا مباشرةً إلى المحطة، حيث ترجَّل البروفيسور. أخذنا حقيبته، وحبسنا بوك داخل العربة لنمنع الكلب من أن يتبعه. بعد ذلك، ساد صمت مربك بينما وقف بجانب العجلة وقد خلع قبعته.

قال:

– حسنًا، يا آنسة ماكجيل، هناك قطار سريع عند الساعة الخامسة، لذا سأكون في بروكلين الليلة إذا حالفني

الحظ. عنوان شقيقي هو ٦٠٠ شارع أبينجدون، وأتمنى عندما ترسلين بطاقة إلى الحكيم، أن تتكرمي بإرسال واحدة إليَّ أنا أيضًا. سوف أفتقد المكتبة المتنقلة بشدة، لكنني أفضِّل تركها معكِ على أن أتركها مع أي شخص آخر أعرفه.

انحنى بشدة، وقبل أن أتمكن من النطق بكلمة، تمخط بعنف وأسرع مبتعدًا. رأيته يحمل حقيبته داخل المحطة، ثم اختفى. أعتقد أن العيش بمفردي مع أندرو طوال هذه السنوات جعلني لا أعتاد غرابة أطوار الآخرين، لكن من المؤكد أن هذا الضئيل ذا اللحية الصهباء كان واحدًا من أغرب المخلوقات التي يمكن أن يلتقيها المرء.

أخذ بوك يعوي في الداخل على نحو كئيب، ولم أشعر بأنني في حالة مزاجية تسمح ببيع الكتب في بورت فيجور. قدت العربة عائدة إلى البلدة، وتوقفت عند مقهى لتناول الشاي مع بعض الخبز. عندما خرجت، وجدت حشدًا صغيرًا إلى حد ما قد تجمع، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى المظهر الغريب للمكتبة المتنقلة، وجزئيًّا بسبب عواء بوك الحزين بالداخل. بدا أن معظم المتفرجين اشتبهوا في أن العربة جزء من حديقة حيوانات متنقلة، لذلك، وضد رغبتي تقريبًا، رفعت السدائل وربطت بوك إلى مؤخرة العربة،

وبدأت أجيب أسئلة الحشد الفكاهية. اشترى شخصان أو ثلاثة كتبًا من دون أي إلحاحٍ، ومضى بعض الوقت قبل أن أتمكَّن من الرحيل. أخيرًا، أغلقت العربة وابتعدت بها، إذ خشيتُ رؤية شخص أعرفه. عندما انعطفت إلى طريق وودبريدج، سمعت صافرة قطار الساعة الخامسة المتجه إلى نيويورك.

كان الطريق البالغ طوله عشرين ميلًا بين مزرعة سابين وبورت فيجور مألوفًا بأكمله بالنسبة إليَّ، لكنني دخلت منطقة الآن لم يسبق أن زرتها من قبل، ما بعث فيَّ الشعور بالارتياح. في رحلاتي العرضية إلى بوسطن، دومًا ما كنت أستقل القطار في بورت فيجور، لذا كانت الطرق الريفية غير مألوفة. لكنني سلكت طريق وودبريدج لأن ميفلين تحدَّث عن مُزارع، السيد برات، يسكن على بُعد أربعة أميال تقريبًا من بورت فيجور، على طريق وودبريدج. على ما يبدو، كان السيد برات قد اشترى كتبًا من البروفيسور مرات عدة، ووعده هذا الأخير بزيارته ثانيةً. لهذا شعرت بأن الواجب يُلزِمني بإرضاء زبون جيد.

بعد المغامرات المتنوعة خلال اليومين الماضيين، كان من المريح تقريبًا أن أصير بمفردي كي أتمكن من التفكير في الأمور. هأنذا، هيلين ماكجيل، في وضع غريب بالفعل.

بدلًا من وجودي بالمنزل في مزرعة سابين أعد العشاء، كنت أسير عبر طريق غريب، المالكة الوحيدة لمكتبة متنقلة (ربما كانت الوحيدة من نوعها في الوجود)، وبين يديَّ حصان وكلب وعربة محملة بالكتب. منذ صباح اليوم السابق، انحرفت حياتي برمتها عن مدارها المعتاد. أنفقت أربعمائة دولار من مدخراتي، وبعت كتبًا بقيمة ثلاثة عشر دولارًا، وتسببَّت في شجار، وقابلت فيلسوفًا. ليس ذلك فحسب، بل بدأت أيضًا على نحو غير واضح أشكِّل فلسفة جديدة خاصة بي. وكل هذا لمنع أندرو من شراء مزيد من الكتب! على أي حال، فقد نجحت في ذلك. عندما رأى المكتبة المتنقلة أخيرًا، لم ينظر إليها بالكاد، سوى بطابع من الاحتقار. ضبطت نفسي وأنا أتساءل عمَّا إذا كان البروفيسور سيشير إلى هذا الحادث في كتابه، وأتمنى لو أنه أرسل إليَّ نسخة. لكن في النهاية، لماذا سيذكره؟ بالنسبة إليه كانت مجرد واحدة من آلاف المغامرات. كما قال لأندرو بغضب، لم يكن يمثِّل لي أي شيء، كما لا أمثِّل أنا شيئًا بالنسبة إليه. كيف له أن يدرك أن هذه هي أول مغامرة أخوضها خلال الخمسة عشر عامًا التي كنت – ما الاسم الذي أطلقه على الأمر؟ – أجمع فيها مختاراتي. حسنًا، يا للرجل الأصهب الضئيل الغريب!

أبقيت بوك مربوطًا في مؤخرة العربة، إذ إنني خشيت أن يفكر في الذهاب للبحث عن سيده. بينما نحن مستمرون في طريقنا، والشمس التي شرعت في المغيب تلقي بضوء مستوٍ عبر الطريق، شعرت بالوحدة نوعًا ما. بدا هذا التجول الانفرادي أمرًا مفاجئًا بعض الشيء، بعد خمسة عشر عامًا من الحياة المنزلية. كان الطريق يقع بالقرب من الماء، وراقبت الخليج وهو يتحول إلى درجة أعمق من الزرقة، ثم إلى الأرجواني الباهت. كان بوسعي سماع هدير الأمواج، وعلى طرف جزيرة لونج آيلاند أظهرت منارة بعيدة بريقًا بلون الياقوت. فكرت في الأصهب الضئيل المتجه إلى نيويورك على متن قطار سريع، وتساءلت عمَّا إذا كان يسافر في عربة نوم، أو عربة عادية. سيبدو مقعد عربة النوم مريحًا بعد ذلك المقعد الصلب في المكتبة المتنقلة.

بمرور الوقت، اقتربنا من مزرعة افترضت أنها للسيد برات. كانت تقع على مقربة من الطريق، وخلفها حظيرة حمراء كبيرة، ودوارة رياح مذهَّبة على شكل حصان راكض. من الغريب أن بيج بدت كما لو أنها تعرَّفت على المكان، إذ انعطفت عند البوابة وصهلت بقوة. لا بد أنه كان مكانًا مفضلًا للبروفيسور كي يتوقف عنده.

من خلال نافذة مضاءة، تمكنت من رؤية أشخاص يجلسون حول مائدة. بدا من الواضح أن آل برات يتناولون العشاء. توقفت في الفناء. نظر أحدهم من النافذة، وسمعت صوت فتاة:

- عجبًا، يا أبي، ها هي المكتبة المتنقلة.

لا بد أن الأصهب كان زائرًا مرحبًا به في تلك المزرعة، إذ إن الأسرة بأكملها خرجت في لحظة مع كثير من صرير المقاعد وقعقعة الأطباق. قاد المجموعة رجل طويل القامة لوَّحته الشمس، يرتدي قميصًا نظيفًا من دون ياقة، ثم أتت امرأة ممتلئة في مثل بِنيتي تقريبًا، ورجل أجير، وثلاثة أطفال.

قلت:

- مساء الخير! هل هذا السيد برات؟

قال:

- بكل تأكيد! أين البروفيسور؟

قلت:

- في طريقه إلى بروكلين، وبحوزتي أنا المكتبة المتنقلة. أشار عليَّ بضرورة زيارتكم، لذا ها نحن ذا.

هتفت السيدة برات:

- حسنًا، أريد أن أعرف! تخيل المكتبة المتنقلة وقد تحولت إلى الدعوة لحق المرأة في التصويت! بين، تولَّ أنتَ أمر تسكين الحيوانات، وسأصطحب السيدة ميفلين إلى الداخل لتناول العشاء.

قلت:

- انتظري هنا، اسمي ماكجيل، الآنسة ماكجيل. انظري، إنه مكتوب على العربة. لقد اشتريت هذه التجهيزات من السيد ميفلين، والأمر برمته صفقة عمل.

قال السيد برات:

- حسنًا، حسنًا، يسعدنا رؤية أي صديق للبروفيسور، ويؤسفنا أنه ليس موجودًا هنا هو أيضًا. تعالي إلى الداخل، وتناولي معنا بعض الطعام.

كان السيد والسيدة برات من أهل الكرم، بكل تأكيد. أسكن بيج وبوك في الحظيرة، وقدَّم لهما عشاءهما، بينما اصطحبتني السيدة برات إلى غرفة نومها الإضافية وجلبت لي إبريقًا من الماء الساخن. ثم عاد الجميع إلى غرفة الطعام، واستؤنفت الوجبة مرة أخرى. أنا خبيرة في الطهي المنزلي، على ما أظن، وعليَّ الاعتراف بأن

بيولا برات ربة منزل من الطراز الأول. كان بسكويتها الساخن مثاليًّا، والقهوة من بن يمني حقيقي، أُعِدَّت على نار هادئة، وليست مغلية، والسجق البارد وسلطة البطاطس يضاهيان جودة اللذين كنتُ أقدمهما إلى أندرو. كما جلبت لي عجة بيض ساخنة يتصاعد منها الدخان، وفتحت جرة من مربى الفراولة التي صنعتها بنفسها. جلس الأطفال (صبيان وفتاة) بأفواه فاغرة، وهم يتبادلون وكز بعضهم بعضًا، وأخرج السيد برات غليونه، بينما أنهيت أنا تناول الكمثرى المطبوخة مع الكِريمة، وكعكة الشوكولاتة. كانت وجبة معدة بعناية. تساءلت عمَّا يتناوله أندرو، وعمَّا إذا كان قد عثر على العش الكائن خلف كومة الحطب، حيث تُسقِط الدجاجة الحمراء بيضها على الدوام.

قال السيد برات:

- حسنًا، حسنًا، أخبرينا عن البروفيسور. توقعنا قدومه إلى هنا في وقت ما خلال هذا الخريف. عادةً ما يأتي هنا في وقت صناعة خمر التفاح.

قلت:

- أعتقد أنه ليس هناك الكثير لأحكيه، فقد توقف عند منزلنا منذ أيام عدة، وقال إنه يريد بيع كل عتاده، لذا

اشتريت منه كل بضاعته. كان يتوق إلى العودة إلى بروكلين، وتأليف كتاب.

قالت السيدة برات:

- كتابه ذاك! دومًا ما كان يتحدث عنه، لكنني لا أعتقد على الإطلاق أنه شرع في كتابته بعد.

قال السيد برات:

- من أين أتيتِ، يا آنسة ماكجيل؟

لاحظت أنه بدا في حيرة شديدة من وجود امرأة تقود عربة محملة بالكتب وتتجول بها في أرجاء البلاد بمفردها.

قلت:

- من جهة ريدفيلد.

- هل تمتين بصلة قرابة إلى ذلك الكاتب الذي يعيش في تلك الجهة؟

قلت:

- هل تقصد أندرو ماكجيل؟ إنه شقيقي.

صاحت السيدة برات:

- حقًّا؟ كان البروفيسور يقدِّره للغاية. قرأ لنا من أحد كتبه

ذات ليلة، وأضجرنا جميعًا حتى خلدنا إلى النوم. قال إنه أفضل أدب في هذه الولاية، على ما أعتقد.

ابتسمت لنفسي وأنا أفكر في الشجار على الطريق من شيلبي.

قال برات:

- حسنًا، إذا كان للبروفيسور أي أصدقاء أفضل منَّا في هذه المنطقة، يسعدني مقابلتهم. أتى هنا لأول مرة منذ أربع سنوات تقريبًا. كنت أعمل في حقل القش عصر ذلك اليوم، وسمعت صيحة بالقرب من بركة الطاحونة. نظرت إلى ذلك الاتجاه، ورأيت طفلين يلوحان بأذرعهما ويصرخان. نزلت التل راكضًا، وكان البروفيسور هناك، يسحب ابني ديك خارج الماء. هذا هو ديك الجالس هنا.

كان ديك صبيًّا صغيرًا في الثالثة عشرة من عمره أو نحو ذلك، وتضرج وجهه بالحمرة تحت النمش.

كان الأولاد يلعبون على طوف هناك، وفجأة سقط ديك في المياه العميقة مباشرةً، بالقرب من السد. وهو لا يستطيع السباحة على الإطلاق أيضًا. سمع البروفيسور، الذي تصادف مروره بعربته تلك، صياح الأولاد. قفز من العربة

بخفة مثل الشمبانزي، وانسلخ جلده فوق السياج، ثم قفز في البركة وسبح إلى هناك وسحب الصبي إلى الشاطئ! أجل يا سيدتي، لقد أنقذ حياة ذلك الصبي حينها، لا شك في ذلك. يمكن لذلك الرجل أن يضجرني بقراءة الشعر حتى أخلد إلى النوم أي ليلة يشاء. إنه ضئيل جسور للغاية، ذلك البروفيسور.

سحب المُزارع برات نفَسًا قويًّا من غليونه. بدا من الواضح أن صداقته مع بائع الكتب المتجول كانت إحدى الحقائق الثابتة في حياته.

واصل قائلًا:

- أجل، يا سيدتي، كان البروفيسور صديقًا مخلصًا لي، بكل تأكيد. أحضرناه هو والصبي إلى المنزل. غاص الصبي في الماء ثلاث مرات، واضطر البروفيسور إلى الغطس كي يعثر عليه. كان كلاهما مرهقًا للغاية، وأؤكد لكِ أنني كنت خائفًا. لكننا جعلنا ديك يفيق بطريقة ما، أسندناه إلى برميل سكر، وسكبنا في حلقه الويسكي، وحركنا ذراعيه، وغطيناه ببطانيات ساخنة، واستفاق بمرور الوقت. ثم وجدت أن البروفيسور، أصيب بجرح في ساقه يكفي لإدخال أربع أصابع به، بعد أن قفز فوق سياج الأسلاك الشائكة بهذه السرعة

(حين قفز إلى البركة). تصلب سرواله من أثر الدماء، ولم يقُل شيئًا. أقسم بيهوذا إنه أشجع ضئيل في نطاق ثلاث ولايات! حسنًا، وضعناه هو أيضًا في الفراش، ثم فقدت زوجتي وعيها، ووضعناها هي الأخرى في الفراش. صاروا ثلاثة، حين وصل الطبيب إلى هنا. كان عصر يوم صيفي رائع! لكن ليبارك الرب قلبكِ، لم نستطِع إبقاء البروفيسور في الفراش طويلًا. خرج في اليوم التالي يبحث عن كتب أشعاره، وفجأة جمعنا كلنا وشرع يعظنا بخصوص الأدب الجيد، مثل أي مبشر. أعتقد أننا جميعًا نمنا ضجرًا بسبب أشعاره، لذا بدأ يقرأ لنا حكاية «جزيرة الكنز» تلك، أليس كذلك أيتها الأم؟ أقسم إن أحدًا منًّا لم ينَم خلال تلك الحكاية. جعل الأولاد يشرعون في القراءة، وقد استمروا فيها منذ ذلك الحين، وصار ديك هو الأول في المدرسة الآن. تقول المعلمة إنها لم ترَ صبيًّا يحب القراءة إلى هذا الحد أبدًا. هذا هو ما فعله البروفيسور من أجلنا! حسنًا، أخبرينا عن نفسكِ، يا آنسة ماكجيل. هل هناك أي كتب جيدة يتعين علينا قراءتها؟ كنت أتوق إلى قراءة شيء ما من كتابات ذلك المدعو شكسبير، الذي اعتاد والدي الحديث عنه كثيرًا، لكن البروفيسور دومًا ما كان يصر أنه يفوق إدراكي!

شعرت بإثارة شديدة لسماع كل هذا عن ميفلين. يمكنني أن أتخيل بسهولة الرجل الضئيل البارع وهو يأسر آل برات البسطاء ببلاغته وحماسته. كما كان لقصة بركة الطاحونة معناها أيضًا. لم يكن الضئيل ذو اللحية الصهباء مجرد متجول غريب الأطوار، بل كان رجلًا حقيقيًّا رابط الجأش حاضر الذهن، به السمات المميزة لبطل. غمرني فجأة فيض من المشاعر الدافئة عندما تذكرت طباعه الكوميدية.

أشعلت السيدة برات النار في موقد الخشب خاصتها، وقدحت زناد فكري متسائلة كيف يمكنني السير بجدارة على خطى البروفيسور. أخيرًا، جلبت «كتاب الأدغال» من العربة، وقرأت لهم قصة «ريكي تيكي تافي». ساد صمت طويل عندما انتهيت.

قال ديك بخجل:

- أقول يا أبي، إن ذلك النمس يشبه البروفيسور إلى حد ما، أليس كذلك؟

بدا من الواضح أن البروفيسور هو البطل التقليدي لهذه الأسرة، وبدأت أشعر كما لو أنني محتالة نوعًا ما!

أعتقد أن تلك كانت حماقة مني، لكنني اتخذت قراري بالفعل بالمضي قدمًا إلى وودبريدج تلك الليلة. لا يمكن

أن تكون المسافة أكثر من أربعة أميال، ولم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة بكثير. شعرت بوخز بسيط من الضيق على نحو غير لائق إلى حد ما، لأنني كنت لا أزال أسير في ظل بريق تأثير البروفيسور. لم يتحدث آل برات عن شيء آخر، وأردت الوصول إلى مكان ألقى فيه التقدير لقيمتي الخاصة، وليس مجرد تلميذة له. حدَّثت نفسي قائلة: «تبًّا لذي اللحية الصهباء، أعتقد أنه سحر هؤلاء الناس!».

وعلى الرغم من احتجاجاتهم ودعواتهم لي إلى قضاء الليلة، فقد صممت على ربط بيج إلى العربة. أعطيتهم نسخة «كتاب الأدغال» مقابلًا بسيطًا لكرم ضيافتهم، وأخيرًا، بعت للسيد برات نسخة صغيرة من كتاب لام «قصص من شكسبير»، اعتقدت أنه سيتمكن من قراءته من دون الإصابة بحمى دماغية. ثم أشعلت فانوسي، وبعد جوقة من عبارات الوداع، انطلقت المكتبة المتنقلة. قلت لنفسي عندما انعطفت إلى الطريق الرئيسي مرة أخرى: «حسنًا، تبًّا للأصهب، يبدو أنه يضع الجميع تحت تأثير سحره... لا بد أنه كاد يصل بروكلين الآن».

ساد الهدوء الشديد طوال الطريق، إلى جانب الظلام الحالك أيضًا، إذ افترشت الغيوم السماء ولم أتمكن من رؤية القمر ولا النجوم. لم يكن من المفروض أن

تواجهني أي صعوبة نظرًا إلى كون الطريق مباشرًا، وأعتقد أنني لا بد أن أكون قد غفوت، حينما انحرفت بيج في منعطف خطأ. على أي حال، أدركت في نحو التاسعة والنصف أن العربة أضحت على طريق أكثر وعورة من الطريق الرئيسي، ولم تكن هناك أعمدة هاتف على مرمى البصر. كنت أعرف أنها تمتد على طول الطريق الرئيسي، لذا بدا من الواضح أنني اقترفت خطأ. قاومت للحظة الاعتراف بأنني قد أكون مخطئة، وحينها تعثرت بيج بشدة ووقفت ساكنة. لم تُعِر أي انتباه لحثي إياها، وعندما ترجلت حاملةً فانوسي لأرى ما إذا كان هناك أي شيء يعترض الطريق، وجدتها أسقطت حدوة، وقدمها تنزف. لا بد أن الحدوة سقطت في مكان ما وراءنا، واخترق مسمار أو شيء ما الجزء الحساس من قدمها. لم أرَ بديلًا سوى البقاء حيث كنت طوال الليل.

لم يكن هذا شيئًا لطيفًا للغاية، لكن مغامرات اليوم وضعتني في حالة مزاجية تتسم بالجلَد، ولم أرَ جدوى من التبرم. ففككت بيج من العربة، وربطتها إلى شجرة. كنت سأستكشف باهتمام أكبر كي أحدد مكاني، لكن زخات غزيرة من المطر شرعت تتساقط، لذا دخلت مكتبتي المتنقلة، واصطحبت بوك معي إلى الداخل،

وأضأت المصباح المتأرجح. كانت الساعة حينها العاشرة تقريبًا، ولم يكن هناك شيء أفعله سوى الخلود إلى النوم، لذا خلعت حذائي واستلقيت على الفراش. تمدد بوك بصورة مريحة للغاية على أرض العربة. نويت القراءة لبعض الوقت، لذلك لم أطفئ النور، لكنني غفوت على الفور تقريبًا.

استيقظت في الحادية عشرة والنصف، وأطفأت المصباح، الذي جعل العربة دافئة للغاية. فتحت النوافذ الصغيرة في الأمام والخلف، وكنت سأفتح الباب، لكنني خشيت أن يتسلل بوك خارجًا. كان الجو لا يزال يمطر بعض الشيء، وانزعجت لشعوري باليقظة الشديدة. استلقيت بعض الوقت وأنا أستمع إلى تساقط قطرات المطر على السقف والكوة، وهو صوت مريح للغاية عندما يكون المرء دافئًا وآمِنًا. بين حين وآخر، سمعتُ بيج تضرب بقدمها تحت الأشجار. أوشكتُ أن أغفو مرة أخرى، عندما أطلق بوك زمجرة خافتة.

أعتقد أنه لا يحق لأي امرأة في مثل حجمي الشعور بالتوتر، لكن شعوري بالأمان اختفى على الفور! بدا كما لو أن صوت تساقط المطر ينذر بالخطر، وتخيلت مئات الأشياء المرعبة. كنت وحدي تمامًا، من دون وسيلة دفاع،

ولم يكن بوك كلبًا ضخمًا. زمجر مرة أخرى، وشعرت بأنني أسوأ من ذي قبل. تخيلت أني سمعت أصواتًا تتسلل وسط الشجيرات، وفي مرة أصدرت بيج شخيرًا كما لو أنها تشعر بالخوف. مددت يدي لأربت على بوك، فوجدت شعر عنقه منتصبًا بأكمله، مثل ديك مقاتل. أطلق صوتًا غريبًا نصفه زمجرة، والنصف الآخر أنين، ما جعل البرودة تسري فيَّ. لا بد أن هناك شخصًا ما يحوم حول العربة، لكنني لم أتمكن من سماع شيء وسط المطر المتساقط.

شعرت بأن عليَّ القيام بشيء ما. خشيت النداء بصوت مرتفع، كي لا أكشف حقيقة أنه لا يوجد في العربة سوى امرأة. كانت خطتي سخيفة بما يكفي، لكنها أشبعت رغبتي في التصرف على أي حال. قبضت على فردة من حذائي، وضربت الأرض بقوة، وفي الوقت نفسه زمجرت بصوت ذكوري عميق قدر استطاعتي:

- ما الخطب، بحق الجحيم؟ ما الخطب، بحق الجحيم؟

أعتقد أن هذا يبدو سخيفًا بما فيه الكفاية، لكنه منحني شيئًا من الراحة. ويبدو أن ذلك قد وفى بالغرض نوعًا ما، إذ إن بوك سرعان ما توقف عن الزمجرة.

استلقيت مستيقظة لمدة طويلة، شاعرة بوخز التوتر في

جسدي بأكمله. ثم بدأت أهدأ، وشعرت بالنعاس رغمًا عني تقريبًا، حتى أيقظني الصوت الجلي لذيل بوك وهو يضرب الأرض، وهي علامة أكيدة على السعادة. حيَّرني هذا بالقدر نفسه تقريبًا الذي حيَّرتني به زمجرته. لم أجرؤ على إشعال الضوء، لكنني سمعته يتشمم بالقرب من باب العربة، ويئن بلهفة. بدا لي هذا في غاية الغرابة، فتسللت من الفراش خلسة مرة أخرى، وضربت الأرض بعنف، بمقلاة هذه المرة، ما أصدر ضجيجًا غريبًا. صهلت بيج وشخَرت، وشرع بوك في النباح. حتى في خضم شعوري بالقلق، كدت أضحك. قلت لنفسي: «يبدو هذا أشبه بمستشفى للأمراض العقلية»، وفكرت أنه من المحتمل أن يكون هذا الاضطراب بسبب حيوان صغير فحسب. ربما أرنب أو ظَرِبان، اشتم بوك رائحته وأراد مطاردته. ربتُّ عليه، وزحفت إلى فراشي مرة أخرى.

لكن شعوري الحقيقي بالإثارة كان لا يزال آتيًا. بعد قرابة نصف ساعة، سمعت وقع خطوات واضحة بجانب العربة. زمجر بوك بشراسة، واستلقيت أنا في ذعر. اصطدم شيء ما بإحدى العجلات، ثم اندلع ضجيج في غاية الغرابة. سمعت وقع خطى سريعة، وصهلت بيج، وسقط شيء بعنف على مؤخرة العربة. كان هناك شجار عنيف على

الأرض، وصوت ضربات، وأنفاس متسارعة. أطللت من إحدى النوافذ الخلفية وقلبي يتواثب. لم يكن هناك أي ضوء بالكاد، لكنني رأيت على نحو خافت كتلة متدحرجة تتلوى وتتقلب على الأرض. اصطدم شيء ما بإحدى العجلات الخلفية، حتى اهتزت المكتبة المتنقلة. سمعت سبابًا بصوت أجش، ثم تدحرجت الكتلة بأكملها، أيًّا ما كانت، بعيدًا تحت الشجيرات. علا صوت اصطدام رهيب، وتحطم أغصان. أخذ بوك يئن ويزمجر، ويضرب الباب بقائمتيه بجنون. بعد ذلك، ساد الصمت التام.

صارت أعصابي محطمة تمامًا حينها. لا أعتقد أنني خفت إلى هذا الحد منذ أيام طفولتي حينما كنت أستيقظ من أحد الكوابيس. تقاطر الخوف متسللًا صعودًا وهبوطًا عبر عمودي الفقري، وشعرت بوخز في فروة رأسي. سحبت بوك أعلى الفراش، ورقدت وإحدى يديَّ على طوقه. بدا مضطربًا هو أيضًا، وأخذ يتشمم بحذر بين حين وآخر. لكنه أطلق تنهيدة في النهاية، وخلد إلى النوم. قدَّرت أن الساعة ربما تكون الثانية صباحًا، لكنني لم أرغب في إشعال ضوء. وأخيرًا، سقطت في غفوة.

عندما استيقظت، كانت الشمس تلتمع متألقة، وزقزقة العصافير تملأ الجو. شعرت بالتيبس وعدم الارتياح

بسبب النوم مرتدية ملابسي، وشعرت بالخدر في قدميَّ من وزن بوك.

نهضت وأطللت من النافذة. كانت العربة تقف في ممر ضيق بجوار بستان من أشجار «البتولا». بدت الأرض موحلة، وملطخة بآثار الأقدام خلف العربة. فتحت الباب، ونظرت حولي. أول ما رأيته على الأرض بجانب إحدى العجلات، هو قبعة بالية من قماش «التويد».

الفصل التاسع

باتت مشاعري مختلطة، مثل مثلجات بالمكسرات المجروشة. لم يذهب البروفيسور إلى بروكلين في النهاية إذن! ما الذي كان يعنيه من طوافه خلفي خلسة كمحقق؟ هل كان الأمر مجرد شعوره بالحنين إلى المكتبة المتنقلة فحسب؟ هذا غير مرجح! ثم تلك الأصوات الرهيبة التي سمعتها خلال الليل: هل كان هناك متشرد ما يحوم حول العربة على أمل سرقتي؟ هل هاجم المتشرد ميفلين؟ أم هل هاجم ميفلين المتشرد؟ مَن منهما انتصر؟

التقطت القبعة الموحلة، وألقيتها داخل العربة. على أي حال، كانت لديَّ مشكلاتي التي عليَّ تولي أمرها، ويمكن لتلك الخاصة بالبروفيسور الانتظار.

صهلت بيج عندما رأتني. تفحصت قدمها، وعند رؤيتها في وضح النهار، لم يكن من الصعب تشخيص المشكلة.

انحشرت قطعة طويلة مسننة من الأردواز في ضفدع القدم. سحبتها بسهولة، وسخنت بعض الماء، ومسحت الحافر مرة أخرى. ستصبح على ما يرام عند إعادة الحدوة إليها ثانيةً. لكن أين الحدوة؟

قدمت للحصان بعض الشوفان، وطهوت لنفسي بيضة وأعددتُ كوبًا من القهوة على موقد الكيروسين الصغير، وفتَتُّ واحدة من بسكويت الكلاب لبوك. تعجبت مرة أخرى من كمال تأثيث العربة. ساعدني بوك في تنظيف المقلاة، وتشمم القبعة بلهفة عندما أريته إياها، وهزَّ ذيله.

بدا لي أن الشيء الوحيد الذي بوسعي فعله هو ترك العربة والحيوانات في مكانها، والعودة أدراجي حتى مزرعة برات. لا شك في أن السيد برات سيسعده أن يبيع لي حدوة حصان، ويرسل معي رجله الأجير ليؤدي لي المهمة. لم يكن باستطاعتي قيادة العربة وبيج على هذه الحال، بقدم مصابة ومن دون حدوة. قدَّرت أن العربة ستكون آمِنة تمامًا، إذ بدا أن الممر منعزل ويؤدي إلى محجر مهجور. ربطت بوك إلى السلم ليعمل حارسًا، وأخذت معي حقيبتي وقبعة البروفيسور، وأغلقت باب العربة، ثم انطلقت عبر الممر الخلفي. شرع بوك يئن ويجذب رباطه بشدة حينما رآني أختفي، لكنني لم أرَ أي سبيل آخر.

عاد الممر للاتصال مع الطريق الرئيسي على مسافة نصف ميل تقريبًا إلى الوراء. لا بد أنني كنت نائمة، وإلا لم أكن لأقترف خطأ الانحراف عن الطريق أبدًا. لا أفهم السبب الذي دفع بيج إلى اتخاذ ذلك المنعطف، إلا إذا كانت قدمها تؤلمها، وقدرتْ أن الممر الجانبي سيشكِّل مكانًا جيدًا للراحة. لا بد أنها كانت تألف جيدًا التوقف ليلًا في العراء.

سرت وأنا أفكر في مغامراتي، وعزمت على شراء مسدس حينما أصل وودبريدج. أذكر أنني فكرت أن بوسعي الآن تأليف كتاب أنا أيضًا. بدأت بالفعل أشعر بأنني رائدة متمرسة. لا يستغرق الأمر وقتًا طويلًا من شخص قابل للتكيف لتعويد نفسه على نمط حياة جديد، وبدا الروتين الممل للمزرعة مضجرًا بالتأكيد مقارنةً بالسفر بالمكتبة المتنقلة. عندما أتجاوز وودبريدج، وأعبر النهر، سأبدأ في بيع الكتب بجدية. كما سأشتري أيضًا دفتر ملاحظات، وأدوِّن تجاربي. كنت قد سمعت عن بيع الكتب بوصفه مهنة للنساء، لكنني اعتقدت أن ما خبرته بها كان فريدًا على الأرجح. ربما حتى أؤلف كتابًا ينافس كتاب أندرو، أجل، وكتاب ميفلين. وأعادني هذا إلى التفكير في ذي اللحية الصهباء مرة أخرى.

فكرت أنه من بين جميع الأشخاص الاستثنائيين، فهو بالتأكيد يحتل المركز الأول، وبعدها حين انعطفت حول منحنى في الطريق، رأيته جالسًا على قضيب سياج، ورأسه يلتمع تحت الشمس. وثب قلبي نوعًا ما. أعتقد أنني بدأت أميل إلى البروفيسور. كان يتفحص شيئًا ما يمسكه بيده.

قلت:

- سوف تصاب بضربة شمس. ها هي قبعتك.

وسحبتها من جيبي وألقيتها إليه.

قال بمنتهى الهدوء:

- شكرًا، وها هي حدوة حصانكِ. إنها مقايضة عادلة!

انفجرت في الضحك، وبدا هو مرتبكًا، كما تمنيت أن يكون.

قلت:

- اعتقدت أنك ستكون في بروكلين الآن، في ٦٠٠ شارع أبينجدون، تخطط الفصل الأول. ما الذي تقصده بتتبعك لي على هذا النحو؟ كدت تخيفني حتى الموت الليلة الماضية. شعرت كما لو أنني واحدة من بطلات فينيمور كوبر، حبيسة داخل معقل صغير بينما الهنود الحمر يجوسون في الجوار.

تخضب وجهه وبدا عليه الضيق البالغ.

قال:

- أنا مدين لكِ بالاعتذار. بالتأكيد لم أقصد أبدًا أن تريني. اشتريت تذكرة إلى نيويورك، وسلمت حقيبتي، وبعد ذلك بينما كنت أنتظر القطار، طرأ عليَّ أن شقيقكِ على حق، وأن الأمر تحفُّه المخاطر البالغة بالنسبة إليكِ وأنتِ تتجولين بمفردكِ في المكتبة المتنقلة. خشيت أن يقع شيء ما. تتبعتكِ على الطريق من خلفكِ، مبقيًا نفسي بعيدًا عن الأنظار.

- أين كنتَ وأنا عند آل برات؟

قال:

- كنت جالسًا على مقربة من الطريق، أتناول الخبز والجبن. كما كتبت قصيدة أيضًا، وهو شيء نادرًا ما أفعله.

قلت:

- حسنًا، آمل أن تكون أذناك قد احترقتا، إذ إن آل برات هؤلاء قد رفعوك إلى مرتبة النبلاء بكل تأكيد.

ازداد انزعاجًا أكثر من أي وقت مضى.

قال:

- حسنًا، يمكنني القول بأن الأمر برمته كان خطأ، لكنني تبعتكِ بالفعل على أي حال. عندما انعطفتِ في ذلك الممر، بقيتُ قريبًا جدًّا منكِ. تصادف وأنني أعرف هذه المنطقة من البلاد، وكثيرًا ما يتجمَّع بعض المتشردين عند المحجر القديم في نهاية ذلك الممر. لديهم كهف هناك، حيث يسكنون شتاءً. خشيت أن بعضهم قد يزعجونك. لم يكن بوسعك اختيار مكان أسوأ من هذا تقريبًا للتخييم فيه. قسمًا بروح جورج إليوت، كان يجب أن يحذِّركِ برات. لا يسعني فهم لِم لَم تتوقفي لقضاء الليلة في منزله على أي حال.

- إذا كنتَ مصمِّمًا على معرفة السبب، فقد سئمت سماعهم يتغنون بالثناء عليك.

رأيت أنه بدأ يشعر بالغضب.

قال:

- يؤسفني أنني أزعجتكِ. أرى أن بيج أسقطت حدوة، إذا سمحتِ لي بأن أصلحها لكِ، فلن أزعجكِ بعد ذلك.

استدرنا عائدَين أدراجنا عبر الطريق مرة أخرى، ولاحظت الجانب الأيمن من وجهه لأول مرة. كانت هناك كدمة زرقاء ضخمة أسفل الأذن.

قلت:

- لا بد أن ذلك المتشرد، أو أيًّا مَن كان، مقاتل أفضل من أندرو. أرى أنه أصاب وجنتك. هل تشتبك في القتال على الدوام؟

اختفى انزعاجه. بدا من الواضح أن البروفيسور يستمتع بالقتال بقدر استمتاعه بكتاب جيد تقريبًا.

قال وهو يضحك ضحكة مكتومة:

- أرجو ألَّا تنظري إلى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة بوصفها تمثِّل طبيعتي المعتادة. أنا لست معتادًا على الإطلاق أن أكون مرافقًا للسيدات، لذا ربما آخذ المسؤولية على محمل الجد بصورة أكبر مما ينبغي لي.

سألته:

- هل نمت على الإطلاق الليلة الماضية؟

أعتقد أنني بدأت أدرك لأول مرة أن المخلوق الضئيل الشجاع قضى الليل بأكمله في الخارج تحت المطر المنهمر، كي يحميني فحسب من أي إزعاج محتمل، في حين أبديت أنا فظاظة حيال ذلك على نحو لا يُغتفَر.

- وجدت كومة قش جيدة للغاية في حقل يطل على

المحجر، زحفت إلى منتصفها. أحيانًا ما تكون كومة قش مريحة أكثر من نزل.

قلت بندم:

- حسنًا، لا يمكنني مسامحة نفسي أبدًا على المتاعب التي تسببت لك فيها. كان كرمًا بالغًا منك أن تفعل ما فعلته. من فضلك اعتمِر قبعتك، وتجنَّب الإصابة بالبرد.

مشينا دقائق عدة في صمت، وراقبته من طرف عيني. خشيت أنه قد يموت بردًا من جراء بقائه طوال الليل تحت المطر، علاوة على الشجار الذي خاضه مع المتشرد، لكنه في الواقع بدا مرِحًا مثل أي وقت مضى.

سألني:

- كيف تروق لكِ الحياة الجامحة بائعةً للكتب؟ يجب أن تقرئي جورج بورو. كان سيستمتع بالمكتبة المتنقلة.

- كنت أفكر للتوِّ، عندما قابلتك، أن بإمكاني تأليف كتاب عن مغامراتي.

قال:

- هذا جيد! ربما نتعاون في ذلك.

قلت:

- هناك شيء آخر قد نتعاون في شأنه، وهو الإفطار. أنا متأكدة أنك لم تتناول شيئًا.

قال:

- لا، لا أعتقد أنني فعلت. أنا لا أكذب أبدًا عندما أعرف أنه لا يمكن تصديقي.

قلت:

- لم أتناول الإفطار أنا أيضًا.

اعتقدت أن إلقاء كذبة سيكون أقل ما يمكنني فعله لمكافأة الرجل الضئيل على عدم أنانيته.

قال:

- حسنًا، في الحقيقة ظننت أنه بحلول هذا الوقت...

قطع حديثه، ثم سأل بحدة:

- هل كان ذلك نباح بوك؟

كنَّا نسير الهوينى، ولم نصل بعد إلى النقطة التي يتفرع فيها الممر من الطريق الرئيسي. كنَّا لا نزال على بُعد ثلاثة أرباع ميل تقريبًا من المكان الذي خيمت فيه خلال الليل. أصاخ كلانا السمع، لكنني لم أسمع شيئًا سوى صفير أسلاك الهاتف على طول الطريق.

قال:

- لا يهم، ظننت أنني سمعت كلبًا.

لكنني لاحظت أنه أسرع خطاه.

واصل قائلًا:

- كنت أقول إنني ظننت حقًّا أنني سوف أفقد المكتبة المتنقلة إلى الأبد بحلول صباح اليوم، لكنني سعيد بشدة لأنه سنحت لي الفرصة لرؤيتها مرة ثانية. أتمنى أن تكون صديقة طيبة لكِ، كما كانت بالنسبة إليَّ. أعتقد أنكِ ستبيعينها عندما تعودين إلى الحكيم؟

قلت:

- لا أدري ما إذا كنت متأكدة. عليَّ الاعتراف بأنني ما زلت حائرة بعض الشيء. يبدو أن رغبتي في المغامرة قادتني إلى التورط في الأمر أكثر مما توقعت. بدأت أرى أن هناك المزيد في لعبة بيع الكتب هذه أكثر مما اعتقدت. بصراحة، بدأ الأمر يسري في دمي.

قال بحرارة:

- حسنًا، هذا جيد. لم يكن بوسعي ترك عربة الكتب بين يدين أفضل من يديكِ. يجب أن تخبريني بما ستفعلينه

بها، وبعد ذلك، عندما أنتهي من كتابي، ربما أستطيع شراءها مرة أخرى.

انطلقنا في طريقنا عبر الممر. كانت الأرض زلقة تحت الأشجار، وسرنا في صف واحد، وميفلين في المقدمة. نظرت إلى ساعتي، كانت الساعة التاسعة صباحًا، مجرد ساعة واحدة منذ تركت العربة. عندما اقتربنا من المكان، ظل ميفلين ينظر إلى الأمام عبر أشجار «البتولا» على نحو غريب.

قلت:

- ما الخطب؟ كدنا نصل إلى هناك، أليس كذلك؟

قال:

- نحن هناك بالفعل. هذا هو المكان.

كانت المكتبة المتنقلة قد اختفت!

الفصل العاشر

وقفنا في ارتباك تام - أو فعلت أنا، على أي حال - للمدة التي يستغرقها تقشير حبة من البطاطس تقريبًا. لم يكن هناك شك في الاتجاه الذي تحركت فيه العربة، إذ بدا مسار العجلات واضحًا. ابتعدت عبر الممر، في اتجاه المحجر، وظهر عدد من آثار الأقدام في الأرض التي كانت لا تزال رطبة.

صاح البروفيسور:

- قسمًا بروح بوليكارب! لقد سرق أولئك المشردون العربة. أعتقد أنهم يظنون أنها ستشكِّل عربة نوم جيدة لهم. لو أنني أدركت أن هناك أكثر من واحد منهم، لكنت بقيت في مكان أقرب منكِ. إنهم بحاجة إلى درس.

فكرت: «يا إلهي! ها هو دون كيشوت، على وشك خوض معركة أخرى».

سألته:

- أليس من الأفضل أن نعود أدراجنا ونجلب السيد برات؟

من الواضح أن هذا لم يكن الشيء الصحيح الذي يجب التفوه به، إذ جعل الرجل الضئيل المتحمس يرغب في إثبات نفسه بدرجة أكبر. انتصب شعر لحيته، وقال:

- لن نفعل شيئًا من هذا القبيل! إن هؤلاء الرجال جبناء ومتشردون، على أي حال. لا يمكن أن يكونوا بعيدين بدرجة كبيرة. لم تتغيبي لأكثر من ساعة، أليس كذلك؟ أقسم بروح تشوسر، لو أنهم فعلوا أي شيء لإيذاء بوك، فسوف أعذبهم. ظننت أنني سمعته ينبح.

أسرع في طريقه عبر الممر، وتبعته في حالة مزاجية يغلب عليها الذعر. امتد الممر متعرجًا عبر منحدر تلٍّ، بين ضفة عالية وغابة من أشجار «البتولا». أعتقد أن المسافة لم تكن تزيد على أكثر من ربع ميل. على أي حال، في غضون بضع دقائق، انعطف الطريق على نحو حاد جهة اليمين، ووجدنا أنفسنا ننظر إلى المحجر في الأسفل، فوق جرف صخري شديد الانحدار، لا يقل عن مائة قدم. بالأسفل، على أحد جوانب الجدار الصخري، وقفت المكتبة المتنقلة. كانت بيج بين عمودَي العربة، بينما لم يكن بوك في أي مكان ظاهر للعيان. بجوار العربة، جلس ثلاثة رجال تبدو

عليهم القذارة. تصاعد في الهواء دخان نار الطهي. بدا من الواضح أنهم يستغلون مخزن مؤني الصغير.

قال البروفيسور بصوت خافت:

- تراجعي إلى الوراء. لا تدعيهم يروننا.

تمدد مستويًا فوق العشب، وزحف إلى حافة الجرف. فعلت الشيء نفسه، واستلقينا هناك، غير مرئيَّين من الأسفل، لكن بوسعنا تمامًا رؤية كل شيء في المحجر. بدا من الواضح أن المتشردين الثلاثة كانوا يستمتعون بإفطار ممتاز.

همس ميفلين:

- هذه البقعة هي مكان اجتماع معتاد لهؤلاء الرجال. لقد رأيت المتشردين في هذه الأرجاء في كل عام. عادةً ما يذهبون إلى المأوى الشتوي عند نهاية شهر أكتوبر تقريبًا. هناك قسم قديم منفجر من هذا المحجر يشكِّل مهجعًا محميًّا بالنسبة إليهم. وبما أن المكان لم يعُد يعمل، فهم لا يتعرضون للإزعاج هنا، ما داموا لا يتسببون في الأذى في الحي. سوف نمنحهم...

قال صوت خشن خلفنا:

- ارفعا أيديكما!

نظرت ورائي حيث كان هناك مخلوق سمين أحمر الوجه بادي الخسة يصوب إلينا مسدسًا لامعًا. كان موقفًا حرِجًا. استلقينا أنا والبروفيسور بالكامل على الأرض، عاجزَين تمامًا.

قال المتشرد بصوت أجش بغيض:

- انهضا! أعتقد أنكما ظننتما أننا لا نغطي آثارنا؟ حسنًا، سوف نضطر إلى تقييدكما على ما أظن، بينما نهرب بقصركما البلَّوري هذا.

اندفعت إلى الوقوف على قدميَّ، لكن لدهشتي بقي البروفيسور مستلقيًا تمامًا.

كرر المتشرد قوله:

- انهض، أيها الشماس! فلتقف على أطرافك الرشيقة هذه، إذا سمحت.

أعتقد أنه ظن نفسه في مأمن من التعرض للهجوم من قِبَل امرأة. على أي حال، انحنى كما لو أنه سيقبض على ميفلين من رقبته، فرأيت فرصتي وقفزت عليه من الخلف. إن وزني ثقيل، كما ذكرت من قبل، لذا فقد انبطح أرضًا. تبددت شكوكي على الفور فيما يتعلق بكون المسدس عامرًا بالذخيرة، إذ إنه انطلق كالمدفع. مع ذلك، لم يكن

هناك أحد أمامه، ونهض ميفلين على قدميه بسرعة البرق. أمسك بذلك الهمجي من عنقه، وركل السلاح من يده، فهُرعت إلى الاستيلاء عليه.

قال الشجاع ذو اللحية الصهباء:

- يا ابن الأبالسة! لقد ظننت أنك تستطيع إرهابنا، أليس كذلك؟ آنسة ماكجيل، لقد كنتِ سريعة مثل جان دارك. ناوليني المسدس، من فضلكِ.

ناولته إياه، فدفعه تحت أنف المتشرد.

قال:

- والآن، اخلع تلك الخرقة التي تحيط بعنقك.

كانت الخرقة عبارة عن منديل قديم أحمر اللون، متسخ بدرجة لا يمكن تصورها. خلعها المتشرد وهو يتذمر ويئن. أعطاني ميفلين المسدس لأمسكه، بينما ربط معصمَي أسيرنا معًا. في غضون ذلك، سمعنا صيحة من المحجر. كان المتشردون الثلاثة ينظرون إلى الأعلى بانفعال كبير.

قال ميفلين وهو يربط يدَي المتشرد معًا:

- فلتخبر أولئك المتأنقين في الأسفل هناك أنهم إذا أثاروا أي شجار، فسوف أصطادهم كالغربان.

كان صوته باردًا ووحشيًّا، وبدا أنه سيد الموقف تمامًا، لكن يجب أن أعترف أنني تساءلت كيف سنتمكن من التعامل مع أربعة منهم.

صاح الهمجي المشحم إلى أصدقائه في المحجر بالأسفل، لكنني لم أسمع ما قاله، إذ طلب مني البروفيسور حينها أن أبقي عينيَّ على أسيرنا بينما يجلب هو عصا. وقفت والمسدس مصوب إلى رأسه، بينما هُرع ميفلين عائدًا إلى غابة «البتولا» ليقطع هراوة.

صار وجه المتشرد بلون الجهة السفلية من بيضة مقلية وهو ينظر إلى فوهة مسدسه.

قال متوسلًا:

- حسنًا، يا سيدتي، إن ذلك المسدس ينطلق بسهولة بالغة، صوبيه نحو مكان آخر، وإلا ستقتلينني عن طريق الخطأ.

ظننت أن بث الخوف الشديد في نفسه لن يتسبب له في أي ضرر، وأبقيت الفوهة مصوَّبة إليه بثبات.

بدا أن الأوغاد في الأسفل يتجادلون فيما يتعين عليهم فعله. لا أعرف ما إذا كانوا مسلحين أم لا، لكنهم ربما تخيلوا أن هناك أكثر من اثنين منَّا. على أي حال، حينما عاد ميفلين وبحوزته عصا سميكة من خشب «البتولا»، كانوا يندفعون

خارجين من المحجر بالأسفل. أطلق البروفيسور السباب، وبدا كما لو أنه سيطاردهم بكل سرور، لكنه امتنع عن ذلك.

قال للمتشرد بنبرة واضحة:

- أنت، تعالَ هنا، تقدم أمامنا إلى المحجر بالأسفل.

نزل الهمجي السمين الطريق وهو يسير متثاقلًا على نحو أخرق. اضطررنا إلى أن نسلك طريقًا ملتفًّا بدرجة كبيرة لدخول المحجر، وعندما وصلنا إلى هناك، كان المتشردون الثلاثة الآخرون قد فروا تمامًا. في الحقيقة، لم يؤسفني ذلك. ظننت أن البروفيسور خاض ما يكفي من الشجار خلال أربع وعشرين ساعة.

صهلت بيج بصوت مرتفع حينما رأتنا، لكن بوك لم يكن ظاهرًا للعيان.

قال ميفلين:

- ماذا فعلت بالكلب، أيها الخنزير؟ إذا آذيته، فسأجعلك تدفع الثمن حياتك.

كان أسيرنا مذعورًا تمامًا. قال متملقًا:

- لا يا زعيم، نحن لم نؤذِ الكلب. قيدناه كي لا يتمكن من النباح، هذا هو كل ما في الأمر. إنه في العربة.

وبكل تأكيد، تمكنّا حينها من سماع نباح مكتوم وأنين صادرَين من داخل المكتبة المتنقلة.

أسرعت إلى فتح الباب، وكان بوك هناك، وفكاه مقيدان معًا بطرف حبل. اندفع خارجًا، وبذل جهدًا خارقًا كونه كلبًا للتعبير عن سعادته لرؤية البروفيسور مرة أخرى. لم يُعِرني سوى قليل جدًّا من الاهتمام.

قال ميفلين بعد أن حرَّر الكلب، ومنعه بصعوبة من الغوص بأسنانه في قصبة ساق المتشرد:

- حسنًا، ما الذي سنفعله بنموذج البطولة الرجولية هذا؟ هل نصطحبه إلى السجن في بورت فيجور، أم هل نتركه يذهب؟

انفجر المتشرد يئن متوسلًا على نحو يكاد يكون مضحكًا، إذ كان في منتهى التذلل. قاطعه البروفيسور.

قال:

- يجب أن أحبسك في السجن. هل أنت الوسيم الذي اشتبكتُ معه في الممر الليلة الماضية؟ هل كنت أنت مَن يحوم حول هذه العربة إذن؟

- لا يا زعيم، كان ذلك سام ذا الشفة المشقوقة، أقسم بالرب إنه كان هو. لقد عاد يا زعيم، وقال إنه كان يقاتل

سنورًا جبليًّا! حقًّا يا زعيم، من المؤكد أنك ضربته بشدة. صارت إحدى عينيه متورمة تمامًا! أقسم يا زعيم إنه لم يكن لي أي شأن بالأمر.

قال البروفيسور:

- لا تروق لي جماعتك، وسوف أطلق سراحك. سأعد إلى عشرة، وإذا لم تخرج من هذا المحجر حتى ذلك الحين، فسوف أطلق النار. وإذا رأيتك مرة أخرى، فسأسلخك حيًّا. والآن، اخرج من هنا!

قطع المنديل المعقود إلى قسمين، ولم يكن المتشرد بحاجة إلى مَن يحثه، إذ دار على عقبيه وفرَّ مثل الأرنب. راقبه البروفيسور وهو يذهب، وبينما اندفع بهيئته السمينة الخرقاء عبر سياج من الشجيرات واختفى، أطلق البروفيسور المسدس في الهواء ليخيفه بدرجة أكبر، ثم ألقى السلاح في البركة المجاورة.

قال بضحكة خافتة:

- حسنًا، يا آنسة ماكجيل، إذا أردتِ تولي أمر الإفطار، فسأتولى أنا علاج بيج.

وسحب حدوة الحصان من جيبه مرة أخرى.

أقنعني فحص وجيز للمكتبة المتنقلة أن اللصوص لم يسنح

لهم الوقت لإحداث أي ضرر فعلي. أخرجوا معظم الطعام، ونشروه على صخرة مسطحة استعدادًا لوليمة، كما تركوا الكثير من آثار الأقدام الموحلة داخل العربة، لكن بخلاف ذلك، لم أرَ أي شيء على غير ما يرام. لذلك بينما انشغل ميفلين بقدم بيج، كان من السهل لي الشروع في إعداد وجبة. وجدت فيضًا من الماء النقي يتدفق عبر وجه الصخرة. كان لا يزال هناك بعض البيض والخبز والجبن في الخزانة الصغيرة، وعلبة غير مفتوحة من الحليب المكثف. قدمت إلى بيج كيس الشوفان الذي يُعلق فوق أنفها، وأطعمت بوك الذي أخذ يتراقص في أرجاء المكان بمعنويات مرتفعة. حين انتهى من تصليح حدوة الحصان، جلسنا أنا والبروفيسور لتناول وجبة مرتجلة. بدأت أشعر كما لو أن هذا الوجود الغجري هو المسار الطبيعي لحياتي.

قلت وأنا أناوله كوبًا من القهوة وطبقًا من البيض المقلي والجبن:

- حسنًا يا بروفيسور، بالنسبة إلى رجل نام في كومة من القش المبلل، فأنت تتصرف ببسالة رائعة.

قال:

- إن المكتبة المتنقلة القديمة هذه مثل طير جامح نوعًا ما. كنت أعتقد أن الصعوبة الرئيسية في تأليف كتاب

ستكمن في اختراع أشياء حدثت، لكن إذا جلست ودونت المغامرات التي خضتها معها، فسيصبح الكتاب بمنزلة ملحمة تقليدية.

سألته:

- ماذا عن قدم بيج؟ هل يمكنها السير عليها؟

- ستكون على ما يرام إذا سارت بتمهل. لقد كشطتُ الجزء المصاب، وأعدت الحدوة. أحتفظ بمجموعة صغيرة من الأدوات أسفل العربة لجميع أنواع الطوارئ.

كان الجو باردًا، ولم نتباطأ خلال تناول وجبتنا. تظاهرت بتناول الطعام فحسب، إذ إنني تناولت بعض الإفطار من قبل، وكذلك لأن أحداث الساعات القليلة الماضية تركتني قلقة إلى حد ما. أردت الخروج بالمكتبة المتنقلة إلى الطريق الرئيسي مرة أخرى، والسير تحت الشمس، والتفكير في الأمور. كان المحجر كئيبًا وموحشًا على أي حال. لكن قبل رحيلنا، استكشفنا الكهف حيث كان المتشردون يستعدون للاستراحة خلال الشتاء. لم يكن كهفًا بالفعل، بل مجرد نفق في الجرف الجرانيتي. كان هناك ستار من الأغصان مستديمة الخضرة يعمل على حماية الفتحة ضد الطقس، وبالداخل أكوام من الأكياس التي بدا من الواضح أنها استُخدمت أسِرَّةً، وعديد من

صناديق البقالة القديمة كطاولات وكراسي. وجدت الأمر مضحكًا حينما لاحظت جزءًا مشروخًا من مرآة متوازنًا على زاوية أحد الأحجار. حتى هؤلاء الصعاليك على ما يبدو لم يكونوا غافلين تمامًا عن المظهر الشخصي. انتهزت الفرصة، بينما كان البروفيسور يلقي نظرة أخيرة على قدم بيج، لأعيد تسوية شعري، الذي كان مهوشًا على نحو لافت للنظر بكل تأكيد. لا أكاد أعتقد أن أندرو كان سيتمكن من التعرف عليَّ في ذلك الصباح.

قدنا بيج أعلى المنحدر الحاد، وعدنا إلى الممر الذي ضللت فيه الطريق، حتى وصلنا إلى الطريق الرئيسي مرة أخرى في نهاية المطاف. هنا بدأت أفرض الأوامر على ذي اللحية الصهباء.

قلت:

- الآن، انظر هنا يا بروفيسور، لن أسمح لك بالعودة سيرًا طوال الطريق إلى بورت فيجور. بعد الليلة التي قضيتها، أنت بحاجة إلى قسط من الراحة. ما عليك سوى الصعود إلى تلك العربة، والاستلقاء وأخذ غفوة مريحة. سأوصلك إلى وودبريدج، ويمكنك أن تستقل قطارك من هناك. والآن، توجه إلى ذلك الفراش مباشرةً. سأجلس أنا بالخارج هنا، وأتولى القيادة.

اعترض، لكن من دون كثير من التعنت. أعتقد أن الأحمق الضئيل كان مرهقًا تمامًا تقريبًا، ولا عجب في ذلك. كنت أنا نفسي أترنح بعض الشيء. في النهاية كان سهل الانقياد إلى حد بعيد. صعد إلى العربة، وخلع حذاءه واستلقى تحت بطانية. تبعه بوك، وأعتقد أن كليهما نام على الفور. جلست على المقعد الأمامي، وأمسكت المقود. لم أدع بيج تمضي بسرعة أكبر من المشي، إذ رغبتُ في التخفيف عن قدمها المصابة.

يا إلهي، يا له من صباح، بعد ذلك المطر! امتد الطريق قريبًا جدًّا من الشاطئ، وبين حين وآخر كان بوسعي إلقاء نظرة خاطفة على الماء. كان الهواء حادًّا، ليس مجرد ذلك الهواء العادي غير الملحوظ الذي نستنشقه شهيقًا وزفيرًا ولا ننشغل بالتفكير فيه، بل جوهر حاد له وخز، قوي في الخياشيم مثل الكافور أو الأمونيا. بدت الشمس مركزة على المكتبة المتنقلة، وتحركنا عبر الطريق الأبيض في وهج من الضوء الذهبي. تمايلت الأوراق المسطحة لشجر الأرز برقة في الهواء المالح، ولأول مرة منذ عشر سنوات على ما أعتقد، بدأت أسلي نفسي باختيار كلمات لوصف جمال الصباح، حتى إنني تخيلت نفسي أكتب وصفًا له، كما لو كنت أندرو

أو ثورو. أصابني البروفيسور الضئيل المجنون بلوثته الأدبية، على ما أعتقد.

بعد ذلك، فعلت شيئًا مشينًا. بطريق الصدفة فحسب، وضعت يدي في الجيب الصغير بجانب المقعد، الذي يحتفظ فيه ميفلين ببعض الأشياء المتنوعة. كنت أنوي إلقاء نظرة أخرى على بطاقته تلك التي تحوي القصيدة، ووجدت هناك دفتر ملاحظات صغيرًا غريبًا باليًا، ومن الواضح أنه منسي. كُتب على الغلاف بالحبر:

أفكار حول أسباب السخط الحالي.

بدا العنوان مألوفًا على نحو غامض، وبدا أنني أتذكر شيئًا شبيهًا بهذا منذ أيام دراستي، قبل أكثر من عشرين عامًا مضت، يا إلهي! بالطبع لو كنت قد التزمت بالشرف لما طالعته. لكن كنوع من التبرير الذاتي المراوغ، تذكرت أنني اشتريت العربة بكل ما تحتويه، «من الألف إلى الياء» كما اعتاد أندرو القول، ولذلك...

امتلأ الدفتر بالملاحظات الصغيرة، المدونة بالقلم الرصاص بخط يد البروفيسور الصغير الدقيق. كانت الكلمات ممسوحة ومتسخة، لكن يمكن قراءتها بوضوح. قرأت التالي:

لا أعتقد أن بوك أو بيج يشعران بالوحدة، لكن قسمًا بروح بين جان، فأنا أشعر بها. يبدو ذلك سخيفًا في حين أن هيريك، وهانز أندرسون، وتينيسون، وثورو، وحمولة عربة بأكملها من الرجال الطيبين يركبون خلف ظهري. يمكنني سماعهم جميعًا وهم يتحدثون بينما نتدحرج عبر الطريق. لكن الكتب ليست عالمًا ملموسًا في النهاية، وبين حين وآخر نشعر بالجوع إلى بعض العلاقات الأكثر قربًا، والأكثر إنسانية. لقد ظللت وحيدًا تمامًا لمدة ثماني سنوات الآن، باستثناء رانت، وقد يكون ميتًا ولا يفصح عن ذلك أبدًا. إن هذا التجوال لا بأس به بطريقة ما، لكن لا بد أن ينتهي في أحد الأيام. يحتاج المرء إلى الاستقرار في مكان ما، كي ينعم حقًّا بالسعادة.

يا لنا من ضحايا عبثيين للرغبات المتناقضة! إذا استقر المرء في مكان واحد، فإنه يتوق إلى التجوال، وحينما يتجول، فهو يتوق إلى أن يكون لديه سكن. ومع ذلك، فكم يبدو الرضا أمرًا حيوانيًّا، إذ إن جميع الأشياء العظيمة في الحياة يقوم بها أناس ساخطون!

هناك ثلاثة عناصر في الحياة الجيدة: التعلم، والكسب، والشوق. يتعين على المرء التعلم بينما هو يمضي في طريقه، ويجب عليه كسب اللقمة لنفسه وللآخرين،

كما يجب عليه أيضًا الشعور بالشوق: الشوق إلى معرفة المجهول.

يا لها من قصيدة قديمة رائعة، «البكرة»، من تأليف جورج هيربرت! كان هؤلاء الرجال من العصر الإليزابيثي يجيدون الكتابة! ربما أضرت بهم فكرتهم بأن القصائد لا بد أن تكون «بارعة». (أتذكر كيف قال بيكون إن قراءة القصائد تجعل المرء بارعًا؟ لقد أعطى فكرة بهذا عن الأدب في عصره). إن تورياتهم اللفظية وخيالهم الأدبي الهائلَين لم يعودا متماشيَين إلى حد ما مع الذوق السائد لدينا الآن، لكن يا إلهي! لقد حوت أعمالهم جوهر الأمور! لَكَمْ تعاملوا مع مشكلات الحياة ببسالة ووقار!

عندما خلق الرب الإنسان في بادئ الأمر (على حد قول جورج هيربرت)، «كان بجانبه كأس من النعم»، لذا صبَّ على الإنسان كل النعم التي في مخزونه: القوة، والجمال، والحكمة، والشرف، والسرور، ثم امتنع عن منحه آخر تلك النعم، وهي الراحة، أي الرضا. رأى الرب أن الإنسان إذا أحس بالرضا، فلن يشق طريقه إليه أبدًا. ليعاني الإنسان ضيق الصدر، حتى «إذا لم يقده الخير، فقد يلقي به التعب إلى أحضاني».

يومًا ما، سأكتب رواية حول ذلك الموضوع، وسأطلق

عليها اسم «البكرة». في هذا العالم المأساوي المضطرب، لا بد أن يكون هناك مكان ما حيث يمكننا أن نضع رؤوسنا أخيرًا، ونرتاح. يطلق بعض الناس على ذلك اسم الموت، ويطلق عليه البعض اسم الرب.

إن الإنسان المثالي في نظري ليس هو شبيه عمر الخيام الذي يرغب في تحطيم هذا العالم المثير للأسى إلى فتات، ثم يعيد تشكيله ليصير أقرب إلى أهواء قلبه. كان عمر العجوز جبانًا، بمنامته الحريرية وكأس نبيذه. إن الإنسان الحقيقي هو مَن يشبه «الخشب المجفف» الذي تحدَّث عنه جورج هيربرت في قصيدته: الرجل الذي ينجز بمهارة وبراعة أيًّا ما يعترض طريقه. حتى لو كان ذلك مجرد رفع الفحم إلى التنور بالمجرفة، فيمكنه موازنة المجرفة بدقة، وإلقاء الفحم على النار مباشرةً من دون سكبه على الأرض. وحتى إذا كان الأمر مجرد تقطيع الحطب أو قيادة عربة ترولي، فيمكنه أداء المهمة على نحو فني جيد. إذا تعلق الأمر بتأليف كتاب أو تقشير البطاطس فحسب، فيمكنه تقديم أفضل ما لديه في هذا الصدد. حتى إذا كان مجرد عجوز أحمق أصلع الرأس تخطى الأربعين من العمر، يبيع الكتب على طريق ريفي، فيمكنه القيام بذلك على نحو مثالي. يا للمكتبة المتنقلة القديمة الطيبة! إنها

لعبة رائعة... على الرغم من ذلك، فإنني أعتقد أنني سوف أضطر إلى التخلي عنها قريبًا. يجب أن أنتهي من تأليف كتابي ذاك. لكن المكتبة المتنقلة كانت بمنزلة كأس حقيقية من النعم بالنسبة إليَّ.

كان هناك ما هو أكثر من ذلك بكثير في دفتر الملاحظات. في الواقع، امتلأ نصفه بفقرات مدونة، ومذكرات، ومقاطع من الكتابة - أعتقد أن بعضها كان قصائد - لكنني رأيت ما فيه الكفاية. بدا الأمر كما لو أنني تعثرت على حين غرة بقلب الرجل الضئيل الوحيد الشجاع المثير للشفقة. ما أنا إلا مخلوقة عادية، على ما أخشى، غافلة عن عديد من الأشياء الأعمق في الحياة، لكن بين الحين والآخر، كما هي حالنا جميعًا، ألتقي وجهًا إلى وجه بشيء يثيرني. رأيت كيف أن هذا البائع المتجول الضئيل ذا اللحية الصهباء كان أشبه بكتلة من الخميرة وسط عجينة الإنسانية الضخمة الثقيلة، وكيف أنه يتنقل في الأرجاء محاولًا تحقيق مُثله عن الجمال بطريقته الخاصة. انتابني حياله شعور يكاد يكون أموميًّا، وأردت إخباره بأنني فهمته. وبطريقة ما، أحسست بالخجل من كوني هربت من مهامي المنزلية الخاصة، ومن مطبخي، وفناء دجاجي، ومن العزيز أندرو العجوز العصبي شارد الذهن. غمرتني حالة مزاجية

رصينة. فكرت أنني بمجرد أن أصير بمفردي، سأبيع عربة الكتب، وأسرع عائدة إلى المزرعة. كانت تلك هي مهمتي، وتلك هي كأس النعم خاصتي. ما الذي كنت أفعله - امرأة سمينة في منتصف العمر - وأنا أتجول عبر الطرقات مع عربة محملة بالكتب التي لا أفهمها؟

أعدت دفتر الملاحظات الصغير إلى مخبئه. كنت أُفضِّل الموت على أن أدع البروفيسور يعرف أنني رأيته.

الفصل الحادي عشر

أوشكنا على دخول وودبريدج، وبدأت أتساءل للتوِّ عمَّا إذا كان عليَّ إيقاظ البروفيسور، عندما انزلقت النافذة الصغيرة خلفي إلى الوراء، وأطل برأسه إلى الخارج.

قال:

- مرحبًا! أعتقد أنني لا بد أن أكون قد خلدت إلى النوم!

قلت:

- حسنًا، آمل هذا. كنت بحاجة إلى ذلك.

في الواقع، بدا أفضل بكثير، وشعرت بالارتياح لرؤية ذلك. خشيت حقًّا أن يصاب بالمرض بعد نومه في الخارج طوال الليل، لكن أعتقد أنه كان أكثر صلابة مما ظننت. انضم إليَّ على المقعد، وقُدنا إلى المدينة. توجه هو إلى المحطة للاستفسار عن القطارات، وقضيت أنا وقتًا ممتعًا

في بيع الكتب. كنت بعيدة من المنطقة التي عُرِفتُ بها، ولم يساورني أي خجل من محاولة تقليد أساليب ميفلين، حتى إنني تفوقت عليه بذهابي إلى متجر للمعدات، حيث ابتعت جرس عشاء ضخمًا. رننته بقوة حتى تجمَّع حشد، ثم رفعت السديلتين وعرضت كتبي. في الواقع، بعت كتابًا واحدًا فقط، لكنني استمتعت على الرغم من ذلك.

بمرور الوقت، ظهر ميفلين مرة أخرى. أعتقد أنه ذهب إلى الحلاق. على أي حال، بدا في غاية النشاط. كان قد اشترى ياقة نظيفة، وربطة عنق فضفاضة ذات لون أزرق متوهج زاهٍ يليق به حقًّا.

قال:

- حسنًا، سوف ينتقم مني الحكيم بسبب تلك اللكمة التي وجهتها إلى أنفه! لقد ذهبت إلى المصرف لصرف الشيك الخاص بك. اتصلوا بريدفيلد، ويبدو أن شقيقك قد أوقف سداده. الأمر محرج إلى حد ما، إذ يبدو أنهم يعتقدون أنني محتال.

تميزت غيظًا، فبأي حق يُقدِم أندرو على فعل ذلك؟

قلت:

- يا له من غاشم! ماذا سأفعل، بحق السماء؟

قال:

- أقترح أن تتصلي هاتفيًّا بمصرف ريدفيلد، وتبطلي تعليمات شقيقكِ، هذا ما لم تعتقدي أنكِ اقترفتِ خطأ. لا أريد استغلالكِ.

قلت:

- هراء! لن أدع أندرو يفسد عطلتي. هذا هو أسلوبه دومًا: إذا طرأت على ذهنه فكرة، يصبح كالبغل. سوف أتصل بريدفيلد، ثم سنذهب إلى زيارة المصرف هنا.

بيَّتنا المكتبة المتنقلة في الفندق، وتوجهت إلى الهاتف. كنت غاضبة تمامًا من أندرو، وحاولت الاتصال به هاتفيًّا أولًا، لكن لم يرد أحد من مزرعة سابين. بعد ذلك، اتصلت بالمصرف في ريدفيلد، ورد عليَّ السيد شيرلي الصراف، الذي أعرفه جيدًا. أعتقد أنه تعرف على صوتي، إذ لم يبدِ اعتراضًا عندما أخبرته بما أريد.

قلت:

- والآن فلتتصل أنت بالمصرف في وودبريدج، وأخبرهم أن يسمحوا للسيد ميفلين بالحصول على المال. سأرافقه إلى هناك لإثبات هويته. هل سيكون ذلك ملائمًا؟

قال:

- تمامًا.

البليد المخادع الضئيل! لو أنني كنت أعرف فقط ما يدبره!

قال ميفلين إن هناك قطارًا في الساعة الثالثة يمكنه أن يستقله. توقفنا عند مطعم صغير لتناول الطعام، ثم ذهب إلى المصرف مرة أخرى، وأنا برفقته. سألنا الصراف عما إذا كانوا قد تلقوا رسالة من ريدفيلد.

قال:

- أجل، لقد بلغتنا للتوِّ.

ثم نظر إليَّ بغرابة نوعًا ما.

قال:

- هل أنتِ الآنسة ماكجيل؟

قلت:

- أنا هي.

سألني بأدب:

- هل يمكنكِ أن تأتي جانبًا هنا للحظة فحسب؟

قادني إلى غرفة جلوس صغيرة، وطلب مني الجلوس.

افترضت أنه سيحضر لي بعض الأوراق لتوقيعها، لذا انتظرت بصبر شديد لعدة دقائق. كنت قد تركت البروفيسور عند نافذة الصراف، حيث سيعطونه نقوده.

انتظرت بعض الوقت، وفي النهاية سئمت مطالعة روزنامات التأمين على الحياة، ثم حدث وأن نظرت من النافذة. بالتأكيد كان ذلك هو البروفيسور، الذي اختفى للتوِّ حول الزاوية مع رجل آخر.

عدت إلى مكتب الصراف.

قلت:

- ما الخطب؟ إن أثاثكم المصنوع من خشب الماهوجني ساحر، لكنني سئمته. هل عليَّ الانتظار هنا لمدة أطول؟ وأين السيد ميفلين؟ هل حصل على نقوده؟

كان الصراف مخلوقًا ضئيلًا بغيضًا له سوالف.

قال:

- أنا آسف لأنكِ اضطررتِ إلى الانتظار، يا سيدتي. لقد انتهت المعاملة للتوِّ. أعطينا السيد ميفلين ما هو مستحق له، وليست هناك حاجة إلى بقائكِ مدة أطول.

وجدتُ ذلك أمرًا عجيبًا للغاية. بالتأكيد لن يغادر

البروفيسور من دون وداع؟ مع ذلك، لاحظت أن الساعة تشير إلى الثالثة إلا ثلاث دقائق، لذا اعتقدت أنه ربما اضطر إلى أن يُهرع كي يلحق بقطاره. كان رجلًا ضئيلًا غريبًا جدًّا على أي حال...

حسنًا، عدت إلى الفندق، وأنا مستاءة بعض الشيء من هذا الفراق المفاجئ. على الأقل سُررت لأن الرجل الضئيل حصل على ماله كما يجب. سيكتب لي من بروكلين على الأرجح، لكنني لن أحصل على الرسالة بالطبع حتى أعود إلى المزرعة، لأن هذا هو العنوان الوحيد الذي بحوزته. على الرغم من هذا، ربما لا يطول الوقت لذلك كثيرًا. لكنني لم أشعر بالرغبة في العودة الآن، بعد أن تصرف أندرو بهذه الفظاعة الشديدة.

قدت العربة وصعدت بها العبَّارة، وعبرنا النهر. أحسست بالضياع والضيق. حتى الحركة المنعشة وسط الهواء لم تمنحني أي متعة. أطلق بوك أنينًا حزينًا داخل العربة.

لم يستغرق الأمر كثيرًا من الوقت لأكتشف أن التجول بالمكتبة المتنقلة بمفردي تمامًا قد فقدَ بعضًا من سحره. افتقدت البروفيسور: افتقدت طريقته المفاجئة ومباشرته الحديث، وذكاءه الغريب. كما انزعجت من رحيله من دون كلمة وداع. لم يبدُ ذلك طبيعيًّا. خففت جزئيًّا من

شعوري بالضيق بأن توقفت عند مزرعة على الجانب الآخر من النهر، وبعت كتاب طهي. بعد ذلك، بدأت السير عبر الطريق المؤدي إلى باث، الواقعة على بُعد خمسة أميال تقريبًا. لم يبدُ أن قدم بيج تزعجها، لهذا اعتقدت أن السفر إلى ذلك الحد سيكون آمِنًا، قبل التوقف لقضاء الليلة. أحصيت الأيام (مع قدر من الصعوبة، إذ بدا الأمر كما لو أنني رحلت عن المنزل منذ شهر)، وتذكرت أن هذه هي ليلة السبت. فكرت أن بوسعي البقاء في باث يوم الأحد، والحصول على قسط جيد من الراحة. سرنا ببطء عبر الطريق، وأخرجت نسخة من مجلة «فانيتي فير». اندمجت بشدة مع شخصية بيكي شارب، إلى درجة أنني لم أقاطع نفسي حتى لبيع الكتب في المنازل التي مررنا بها. أعتقد أن قراءة كتاب جيد تضفي التواضع على المرء. عندما ترى الفهم البديع للطبيعة البشرية الذي يظهره كتاب رائع حقًّا، فمن المؤكد أن ذلك سيجعلك تشعر بالضآلة، مثل تأمل مجموعة نجوم الدب الأكبر في ليلة صافية، أو رؤية شروق الشمس شتاءً عندما تخرج لجمع البيض في الصباح. وأي شيء يجعلك تشعر بالضآلة مفيد جدًّا لك.

قال البروفيسور: «ما الذي تقصدينه بكتاب رائع؟»، أعني أنني تخيلته يقول ذلك. بدا لي كما لو أن بوسعي رؤيته

جالسًا هناك، ممسكًا في يده بغليونه المصنوع من عرناس الذرة، ووجهه الصغير المتسائل ينظر إليَّ بحدة. بطريقة ما، دفعني الحديث مع البروفيسور إلى التفكير. كان مفيدًا كواحدة من دورات المراسلة تلك في سكرانتون على ما أعتقد، ومن دون مال ندفعه مقابل البريد.

قلت للبروفيسور (أعني، قلت لنفسي) حسنًا، لنرَ: ما طبيعة الكتاب الجيد؟ لا أقصد كتبًا مثل كتب هنري جيمز (إنه المعبود الأعظم لأندرو. لطالما بدا لي أن الكلمات تندفع إلى رأسه نوعًا ما، وأنه لم يتوقف قَطُّ لترتيبها كما يلزم). يجب أن يتصف الكتاب الجيد بشيء من البساطة. ومثل حواء، يجب أن ينبع من مكان ما بالقرب من الضلع الثالث: يتحتم أن يكون به قلب نابض. إن القصة التي يغلب عليها العقل لا تساوي الكثير. على أي حال، لن تلقى قبولًا أبدًا في اجتماع الحياكة الخيري الخاص بسيدات الكنيسة. كانت تلك هي المشكلة مع هنري جيمز. تحدَّث أندرو عنه كثيرًا، لدرجة أنني أخذت أحد كتبه لقراءته بصوت مرتفع في اجتماعنا للحياكة في ريدفيلد. حسنًا، بعد محاولة واحدة، اضطررنا إلى اللجوء إلى رواية «بوليانا».

لم أتولَّ الأعمال المنزلية وإدارة مزرعة لمدة خمسة عشر

عامًا من دون اكتساب بعض الأفكار عن الحياة، وحتى عن الكتب. لن أضع آرائي فيما يتعلق بالأدب في مقابل أفكارك يا بروفيسور (كنت لا أزال أتحدث مع ميفلين في ذهني)، لا، ولا حتى في مقابل أفكار أندرو، لكن كما ذكرت، لديَّ بعض الأفكار الخاصة بي. لقد تعلمت أن العمل المخلص مهم في تأليف الكتب، تمامًا كما هو مهم في غسيل الأطباق. أعتقد أن كتب أندرو لا بد أن تكون جيدة نوعًا ما على أي حال، لأنه بالتأكيد ينكب على التفكير فيها بلا نهاية. يمكنني أن أغفر له لكونه مزارعًا كسولًا، ما دام يؤدي بالفعل مهامه الأدبية على أتم وجه. يمكن للمرء التراخي في كل شيء آخر، إذا أدَّى شيئًا واحدًا فحسب على أفضل نحو باستطاعته. وأعتقد أنه لا يهم كوني جاهلة بالأدب، ما دمت حاصلة على تقدير ممتاز في المطبخ. هذا هو ما ظننته بينما كنت ألمع وأنظف وأفرك وأزيل الغبار وأكنس، ثم أبدأ في إعداد العشاء. إذا حدث وأن جلست في أي وقت للقراءة لمدة عشر دقائق، ستعبث القطة بالكاسترد. لا توجد امرأة في الريف تجلس لمدة خمس عشرة دقيقة متتالية بين شروق الشمس وغروبها على أي حال، ما لم يكن لديها نصف دزينة من الخدم. ولا أحد يعرف شيئًا عن الأدب، ما لم يقضِ معظم حياته جالسًا. هذا هو واقع الأمر، إذن.

كانت تنمية التفكير الفلسفي تجربة جديدة بالنسبة إليَّ. سارت بيج الهوينى وهي في حالة من الرضا، وتتبَّعها الكلب أسفل المكتبة المتنقلة حيث ربطتُه. قرأت مجلة «فانيتي فير»، وفكرت في عديد من الأشياء المختلفة. ترجلت مرة لأقطف بعض أوراق شجر القيقب القرمزية التي جذبتني. أزعجتني السيارات العابرة بغبارها وضوضائها، لكن بمرور الوقت، توقفت إحدى السيارات، ونظر ركابها إلى عربتي بفضول، ثم طلبوا رؤية بعض الكتب. رفعت لهم السدائل، وتوقفنا على أحد جانبَي الطريق، وتبادلنا حديثًا ممتعًا، كما اشتروا أيضًا كتابين أو ثلاثة.

عندما اقتربت من باث، أشارت عقربا ساعة يدي إلى موعد العشاء. كنت لا أزال أشعر بالخجل بعض الشيء من خطة ميفلين في التوقف لقضاء الليلة في المزارع، لذا فكرت في التوجه إلى البلدة مباشرةً، والبحث عن فندق. كان اليوم التالي هو الأحد، لذا بدا من المعقول منح الحصان قسطًا جيدًا من الراحة، والبقاء في باث لليلتين. بدا فندق هوميني هاوس نظيفًا عتيق الطراز، كما وجدت الاسم مسلِّيًا، فدخلته. كان نزلًا رفيع المستوى من نوع ما، ومعظم الموجودين من النساء كبار السن. بدا لي كأنه يكاد يكون ذا طابع أدبي، ويبدو عليه تأثير

إلبرت هابرد، مقارنةً بفندق جراند سنترال في شيلبي. حدق إليَّ الناس هناك بارتياب نوعًا ما، وكدت أعتقد أنهم سيقولون إنهم لا يستقبلون الباعة المتجولين، لكن عندما أظهرت ورقة نقدية جديدة من فئة الخمسة دولارات عند المكتب، تلقيت خدمة جيدة. إن الورقة النقدية من فئة الخمسة دولارات بمنزلة شهادة على المستوى الراقي في نيو إنجلاند.

يا إلهي! كم استمتعت بذلك الدجاج بالكريمة على الخبز، وكعك الحنطة السوداء مع الشراب السكري! بعد أن تألْف طهي كل طعامك بنفسك، تصبح الوجبة من على موقد شخص آخر أفضل نوع من أنواع المتع. بعد العشاء، كنت على استعداد للجلوس على الشرفة مرتدية سترتي، والتسبب في إحماء الكرسي الهزاز من فرط الاستخدام، لكن بعد ذلك تذكرت أنني منوطة بمواصلة تقاليد المكتبة المتنقلة. كنت هناك لنشر عقيدة الكتب الجيدة. فكرت كيف أن البروفيسور لم يتنصل قَطُّ من مواصلة حملته، وعزمت على أن أكون أهلًا للقضية.

عندما أفكر في تلك التجربة، يبدو الأمر جنونيًّا للغاية، لكنني كنت ممتلئة حينها بنوع من الحماس التبشيري. فكرت أنني إذا كنت سأحاول بيع الكتب، فربما يمكنني

الاستمتاع بذلك. جلست معظم السيدات المسنات في غرفة الاستقبال وهن منشغلات بحياكة الصوف أو القراءة أو لعب الورق. في غرفة التدخين، رأيت رَجُلين مُسنَّين. جلست السيدة هوميني، مديرة المكان، على مكتبها خلف حاجز نحاسي وهي تراجع الحسابات بريشة كتابة. فكرت أن النُّزل ربما لم يتعرض لصدمة منذ أن كتب والت ويتمان «أوراق العشب»، وبروح عازمة إما على النجاح وإما على الموت، قررت أن أمنحهم الإثارة.

في غرفة الطعام، لاحظت وجود جرس عشاء ضخم خلف الباب. دخلت هناك، وجلبته. وقفت في الردهة الكبيرة، وبدأت أرنُّه بأقصى ما أستطيع أن أهز ذراعي.

ربما اعتقد المرء أنه إنذار حريق. أسقطت السيدة هوميني قلمها في رعب. دبت الحياة في السيدات المسنات في غرفة الاستقبال، وهُرعن إلى الردهة مثل الصراصير. في غضون دقيقة واحدة، جمعت حشدًا محترمًا للغاية. بات الأمر متروكًا لي كي أسحرهم.

قلت (مقلدة حيل المهنة الخاصةِ بالبروفيسور من دون وعي، على ما أعتقد):

- يا أصدقاء، إن هذا الجرس الذي يدعوكم عادةً إلى مائدة الطعام، يدعوكم الآن إلى مأدبة أدبية. بعد إذن

الإدارة، ومع الاعتذار لإزعاج راحتكم، سألقي بعض الملاحظات حول قيمة الكتب الجيدة. أرى أن كثيرات منكن مغرمات بالقراءة، لذا ربما يكون الموضوع ملائمًا.

حدقوا إليَّ بحرارة تكاد تضاهي حرارة مجموعة مثلجات بالجوز.

واصلت قائلة:

- سيداتي وسادتي، بالطبع تتذكرون حكاية آيب لينكولن عندما قال: «إذا أسمينا الذيل ساقًا، فكم ساقًا لدى الكلب؟». تجيبون قائلين خمسة، وهذا خطأ، لأن، كما قال السيد لينكولن: «تسمية الذيل ساقًا...».

ما زلت أعتقد أنها كانت بداية جيدة، لكن كان ذلك هو أقصى حد وصلت إليه. انتفضت السيدة هوميني من ذهولها، وخرجتْ بسرعة من خلف مكتب الاستقبال، وقبضت على ذراعي. احمرَّ وجهها بشدة بفعل الغضب.

قالت:

- حقًّا! حسنًا، حقًّا!... يجب أن أطلب منكِ مواصلة هذا في مكان آخر. نحن لا نسمح بالباعة المتجولين في هذا النُّزل.

وفي غضون خمس عشرة دقيقة، كانوا قد ربطوا بيج إلى العربة، وطلبوا مني أن أمضي في طريقي. في الواقع، فوجئت بشدة من درجة حماستي، حتى إنني لم أتمكن من الاحتجاج بالكاد. بنوع من الذهول، وجدت نفسي في فندق موس، إذ أكدوا لي أنهم يخدمون الأفراد المنتمين لفئة التجار. توجهت إلى غرفتي مباشرةً، وخلدت إلى النوم بمجرد وصولي إلى المرتبة المحشوة بالقش.

كان ذلك هو خطابي العام الأول والوحيد.

الفصل الثاني عشر

كان اليوم التالي هو الأحد، السادس من أكتوبر. أذكر التاريخ جيدًا.

استيقظت مبتهجة كأيٍّ من بطلات روبرت و. تشامبرز. تلاشت كل شكوكي واكتئابي من المساء السابق، وباتت سعادتي خالصة بالعالم وكل ما فيه. بدا الفندق مكانًا متواضعًا، لكن الأمر كان سيتطلب ما هو أكثر من ذلك لإفساد هدوئي. أخذت حمامًا شديد البرودة في حوض استحمام ريفي حقيقي من الصفيح، ثم تناولت البيض والفطائر على الإفطار. جلس إلى الطاولة بائع متجول يبيع القضبان مانعة الصواعق، وعدد آخر من الباعة المتجولين. أخشى أنني تعمدت صوغ حديثي على غرار ما كان البروفيسور سيقوله لو أنه كان موجودًا هناك، لكنني انسجمت معهم بسلاسة على أي حال. بعد لحظة أو اثنتين

من الخجل المشوب بالحرج، عاملني الباعة المتجولون تمامًا كفردٍ منهم، وسألوني باهتمام عن «خط تخصصي». وصفت لهم ما أفعله، وقالوا جميعًا إنهم يحسدونني على حريتي في المجيء والذهاب من دون الارتباط بمواعيد القطارات. تبادلنا الحديث بمرح لمدة طويلة، ومن دون أن أنتوي ذلك تقريبًا، بدأت في تقديم النصح بخصوص الكتب الجيدة. في النهاية، أصروا على أن أريهم المكتبة المتنقلة. خرجنا جميعًا إلى الإسطبل، حيث أُويت العربة، وتفحصوا الأرفف. لم ألبث أن بعت ما قيمته خمسة دولارات، على الرغم من أنني قررت عدمِ القيام بأي عمل على الإطلاق في يوم الأحد، لكنني لم أستطع الامتناع عن بيعهم الكتب، لأنهم جميعًا بدوا حريصين للغاية على الحصول على شيء جيد حقًّا للقراءة. ظل أحد الرجال يتحدث عن هارولد بيل رايت، لكن كان عليَّ الاعتراف بأنني لم أسمع به من قبل. بدا من الواضح أن البروفيسور لم يقتنِ شيئًا من أعماله. سُررت حينما رأيت في النهاية أن الضئيل ذا اللحية الصهباء لا يعرف كل شيء عن الأدب.

بعد ذلك فكرت فيما إذا كان عليَّ الذهاب إلى الكنيسة أم كتابة الرسائل. أخيرًا، اتخذت قرارًا بكتابة الرسائل. بدأت التعامل مع أندرو أولًا. كتبت:

فندق ذا موس، باث، صباح الأحد.

عزيزي أندرو،

يبدو من الغريب التفكير بأنه لم تمضِ سوى ثلاثة أيام فحسب منذ أن غادرت مزرعة سابين. بصراحة، وقع لي في هذه الأيام الثلاثة أكثر مما وقع لي طوال ثلاثة أعوام في المنزل.

يؤسفني أنك اختلفت أنت والسيد ميفلين، لكنني تفهمت مشاعرك تمامًا. لكنني غاضبة للغاية من أنك حاولت وقف صرف ذلك الشيك الذي أعطيته له. لم يكن هذا من شأنك، يا أندرو. اتصلت هاتفيًّا بالسيد شيرلي، وجعلته يبلغ المصرف في وودبريدج بإعطاء السيد ميفلين المال. لم يخدعني السيد ميفلين لشراء المكتبة المتنقلة، لقد فعلت ذلك بمحض إرادتي. إذا أردت معرفة الحقيقة، فهذا خطؤك أنت! اشتريتها لأنني خفت أن تشتريها أنت، إذا لم أفعل أنا. ولم أرغب في أن أكون بمفردي تمامًا في المزرعة من الآن وحتى عيد الشكر، بينما تذهب أنت في رحلة أخرى. لذا قررت أن أفعل ذلك بنفسي. فكرت أن أرى كيف يروق لك الأمر، حينما تُترك بمفردك تمامًا لإدارة المنزل. كما فكرت أنه سيكون من الرائع بالنسبة إليَّ أن أصفي ذهني لبعض الوقت، وأخوض مغامرة خاصة بي.

والآن، يا أندرو، إليك بعض التوجيهات:

١- لا تنسَ إطعام الدجاجات مرتين يوميًّا، وجمع البيض كله. يوجد عش خلف كومة الحطب، كما أن بعض الدجاجات من سلالة وايندوت شرعت بوضع بيضها أسفل مستودع الثلج.
٢- لا تدع روزي تلمس خزف جدتنا الأزرق، لأنه من المؤكد تمامًا أنها ستكسره إذا لمسته بأصابعها السويدية الضخمة السميكة.
٣- لا تنسَ ملابسك الداخلية الدافئة. صارت الليالي باردة.
٤- نسيتُ وضع الغطاء على آلة الخياطة. أرجو أن تفعل ذلك نيابةً عني، وإلا سيغطيها الغبار.
٥- لا تسمح للقط بالتجول بحرية في أرجاء المنزل ليلًا، فهو دومًا يكسر شيئًا ما.
٦- أرسِل جواربك وأي شيء آخر بحاجة إلى الرتق إلى السيدة ماكنالي، إذ يمكنها القيام بذلك من أجلك.
٧- لا تنسَ إطعام الخنازير.
٨- لا تنسَ إصلاح دوارة الريح فوق الحظيرة.
٩- لا تنسَ إرسال برميل التفاح إلى المعصرة، وإلا فلن يكون لديك أي خمر تفاح لتتناوله حينما يأتي السيد ديكاميرون إلى زيارتنا في وقت لاحق في الخريف.
١٠- كي أتم عشر وصايا فحسب، سأضيف واحدة أخرى: يمكنك الاتصال بالسيدة

كولينز وإبلاغها بأن اجتماع الحياكة الخيري يجب أن يُعقد في منزل شخص آخر الأسبوع المقبل، لأنني لا أعرف متى سأعود تحديدًا. قد أتغيب لمدة أسبوعين إضافيين. هذه أول عطلة لي منذ مدة طويلة، وأنوي الاستمتاع بها حتى الثمالة.

لقد عاد البروفيسور (أعني ميفلين) إلى بروكلين للعمل على كتابه. يؤسفني أنكما اضطررتما إلى الشجار على الطريق الرئيسي كاثنين من مثيري الشغب. إنه رجل ضئيل لطيف، وستحبه إذا تعرفت عليه.

سأقضي يوم الأحد في باث، وسأتوجه إلى هاستينجز غدًا. لقد بعت كتبًا بقيمة خمسة دولارات هذا الصباح، على الرغم من كونه يوم الأحد.

شقيقتك المحبة، **هيلين ماكجيل.**

ملحوظة: لا تنسَ تنظيف فرازة الحليب بعد استخدامها، وإلا فستصبح في حالة مريعة.

بعد الكتابة إلى أندرو، فكرت في إرسال خطاب إلى البروفيسور. كتبت له بالفعل خطابًا طويلًا في ذهني، لكن بطريقة ما، عندما شرعت في تدوينه على الورق، غمرني نوع من الحرج. لم أعرف كيف أبدأ فحسب. فكرت في كم سيكون الأمر أكثر متعة لو أنه موجود هنا بنفسه، وبوسعي الاستماع إليه وهو يتحدث. بعد ذلك،

بينما كنت أكتب الجمل القليلة الأولى، عاد بعض الباعة المتجولين إلى الغرفة.

قال أحدهم:

- ظننت أنكِ قد ترغبين في رؤية صحيفة يوم الأحد.

التقطت الصحيفة بكلمة شكر، ومررت بعينيَّ على العناوين الرئيسية. انتصبتْ أمامي الأحرف السوداء القبيحة، وانقبض قلبي بشدة. شعرت بالبرودة تسري في أناملي.

حادث كارثي
على خط الشاطئ
قطار سريع يصطدم بمحول مفتوح

-

وفاة عشرة أشخاص
وإصابة أكثر من عشرين

-

تعطل إشارات المرور

بدا كما لو أن الأحرف منتصبة أمامي بنفس ضخامة لافتة إعلان مسحوق الحليب المجفف بالشعير. قرأت التفاصيل وأنا أرتعد خوفًا. على ما يبدو، غادر القطار السريع بروفيدنس في الساعة الرابعة من عصر يوم السبت،

وارتطم بمسار جانبي مفتوح بالقرب من ويلدون في الساعة السادسة تقريبًا، ثم اصطدم بسلسلة من عربات الشحن الفارغة. تحطمت عربة الأمتعة، وانقلبت عربة المدخنين من على سفح منحدر. قُتل عشرة رجال... شعرت بالدوار. هل كان ذلك هو القطار الذي استقله البروفيسور؟ دعني أرَ، لقد غادر وودبريدج على متن قطار محلي في الساعة الثالثة. ذكر في اليوم السابق أن القطار يغادر بورت فيجور في الخامسة... لو كان قد بدله ليركب القطار السريع...

في نوع من الرعب المشوب بالذهول، التقطت عيناي قائمة أسماء الموتى، وجرتْ فوقها. حمدًا للرب، لا، لم يكن ميفلين من بينهم، ثم رأيت البند الأخير:

رجل مجهول الهوية، في منتصف العمر.

ماذا لو كان هو البروفيسور؟

وفجأة، شعرت بالدوار، ولأول مرة في حياتي أُغشي عليَّ.

حمدًا للرب، لم يكن هناك أحد في الغرفة. كان الباعة المتجولون قد خرجوا مرة أخرى، ولم يسمعني أحد وأنا أسقط من على الكرسي. أفقتُ في لحظة، وقلبي في دوامة مثل لعبة النحلة الدوارة. لم أدرك ما الخطب في

بادئ الأمر، ثم وقعت عيناي على الصحيفة مرة أخرى. أعدت قراءة الخبر على نحو محموم، وأسماء الجرحى أيضًا التي فاتتني من قبل. لم يكن الاسم الذي أعرفه في أي مكان، لكن الكلمات المأساوية، «رجل مجهول الهوية»، تراقصت أمام عينيَّ. أوه! لو كان هو البروفيسور...

غمرتني الحقيقة كموجة عاتية. كنت أحب ذلك الرجل الضئيل: أحبه، أحبه. فقد جلب شيئًا جديدًا إلى حياتي، وأدخلت أساليبه الغريبة الشُّجاعة السعادة على قلبي العجوز السمين. لأول مرة، وفي فيض لا يطاق من الألم، بدا أنني أدركت أن حياتي لن تكون محتملة أبدًا مرة أخرى من دونه. والآن، ما الذي يتعين عليَّ فعله؟

كيف يمكنني معرفة الحقيقة؟ بالتأكيد، لو كان على متن القطار بالفعل، ونجا من الحادث من دون الإصابة بأذى، كان سيرسل رسالة إلى مزرعة سابين لإبلاغي بذلك. على أي حال، كان هذا احتمالًا. هُرعت إلى الهاتف للاتصال بأندرو.

أوه! يا للبطء المؤلم للاتصالات الهاتفية عند الحاجة إلى الاستعجال الضروري! ارتعش صوتي وأنا أقول لعامل الهاتف: «ريدفيلد ١٥٨ ج». ارتجفت من التوتر، وانتظرت سماع التكة المألوفة من السماعة على الطرف

الآخر. تمكنت من سماع لوحة مفاتيح الهاتف في ريدفيلد وهي تستقبل المكالمة، وتضع القابس للتوصيل مع خط هاتفنا. في مخيلتي، كان بوسعي رؤية الهاتف على الحائط في الردهة القديمة بمزرعة سابين. تمكنت من رؤية البقعة المتسخة من الجص حيث يريح أندرو مرفقه عندما يتحدث في الهاتف، والمكان الذي يدوِّن فيه الأرقام بالقلم الرصاص، وأزيلها أنا بفتات الخبز. استطعت رؤية أندرو وهو خارج من غرفة الجلوس ليرد على الجرس. ثم قال عامل الهاتف بلامبالاة:

- إنه لا يجيب.

تندَّى جبيني بالعرق عندما خرجت من كشك الهاتف.

أتمنى ألَّا أضطر أبدًا إلى معايشة أهوال الساعة التالية مرة أخرى. على الرغم من طباعي الصريحة الودودة، فإنني أصبح في أوقات الضيق متحفظة مثل محار البطلينوس. عزمت على إخفاء معاناتي وقلقي عن أصحاب النوايا الحسنة في فندق موس. أسرعت إلى محطة السكة الحديد لإرسال برقية إلى عنوان البروفيسور في بروكلين، لكنني وجدت المكان مغلقًا. أخبرني صبي أنه لن يفتح إلى ما بعد الظهيرة. اتصلت بالاستعلامات في ويلدون من إحدى الصيدليات، وأخيرًا تواصلت مع متعهد دفن

الموتى الذي أحالني إليه عامل الهاتف في ويلدون. أجابني صوت بشع بنبرة تعزية (هل سبق وأن تحدثت من قبل إلى متعهد دفن موتى عبر الهاتف؟) وقال إنه لم يكن هناك أحد باسم ميفلين من بين القتلى، لكنه أقر بوجود جثة واحدة لا تزال مجهولة الهوية. استخدم عبارة واحدة مروعة جعلتني أرتعد: لا يمكن التعرف عليها. أنهيت المكالمة.

عرفت حينها ولأول مرة رعب الوحدة. فكرت في دفتر الملاحظات الذي رأيته، الخاص بذلك الرجل الضئيل المسكين. فكرت في طباعه الجريئة المحببة، وفي قبعته الصغيرة والمثيرة للشفقة المصنوعة من قماش «التويد»، وفي الزر المفقود في سترته، وفي الرتق الأخرق على كمه البالي. بدا لي أن الفردوس لا يمكن أن يعني شيئًا أكثر من التدحرج على الطرق الريفية في المكتبة المتنقلة التي يتعالى صريرها، مع البروفيسور بجانبي على المقعد. ماذا لو أنني عرفته فقط... كم يبلغ طول المدة؟ جلب إلى حياتي الرتيبة روعة المُثل العليا، والآن، هل فقدته إلى الأبد؟ بدا أندرو والمزرعة باهتَين وبعيدَين. كنت امرأة عجوزًا غير جميلة، وحيدة وعاجزة بشدة. في حيرتي، سرت إلى أطراف القرية، وانفجرت في البكاء.

في النهاية، تمالكت نفسي مرة ثانية. لا أخجل من القول إنني اعترفت الآن صراحةً بما كنت أخفيه عن نفسي. كنت واقعة في الحب: أحب بائع كتب ضئيلًا أصهب اللحية، بدا لي أكثر روعة من السِّير جالاهاد. وأقسمت إنه إذا قبل بي، فسوف أتبعه إلى الطرف الآخر من العالم.

سرت عائدة إلى الفندق. فكرت أن أحاول الاتصال بأندرو هاتفيًّا مرة أخرى. ارتجفت روحي بأكملها عندما سمعت تكة السماعة.

قال صوت أندرو:

- مرحبًا؟

قلت:

- أوه، أندرو، أنا هيلين.

- أين أنتِ؟

(بدا صوته غاضبًا).

- أندرو، هل هناك أي... أي رسالة من السيد ميفلين؟ ذلك الحادث أمس - ربما كان على متن ذلك القطار - لقد شعرت بالخوف البالغ. هل تعتقد أنه... أصيب؟

قال أندرو:

- هراء. إذا أردتِ معرفة أخبار ميفلين، فهو في السجن في بورت فيجور.

أعتقد أن أندرو لا بد أن يكون قد تفاجأ بعد ذلك. بدأت أضحك وأبكي في الوقت نفسه، وفي خضم انفعالي، وضعت السماعة مكانها.

الفصل الثالث عشر

كانت الرغبة الأولى التي انتابتني هي الاختباء في ركن خفي ما، حيث يمكنني التنفيس عن مشاعري من دون خوف أو محاباة. تحكمت في ملامحي قدر استطاعتي قبل الخروج من كابينة الهاتف، ثم تسللت عبر الردهة، وخرجت خلسة من الباب الجانبي. وجدت طريقي إلى الإسطبل، حيث كانت بيج العجوز الطيبة تتغذى في كشكها. نفذت مباشرةً إلى قلبي الرائحة المألوفة لأجساد الخيل وجلود عدة الفرس البالية، وبينما أخذ بوك يتراقص عند ركبتي، وضعت رأسي على عنق بيج وبكيت. أعتقد أن هذه الفرس العجوز السمينة فهمتني. كانت ممتلئة وبسيطة ومتوسطة العمر، مثلي تمامًا، لكنها كانت تحب البروفيسور.

فجأة، تردد صدى كلمات أندرو في ذهني مرة أخرى. انتبهت لها بالكاد من قبل، في خضم الفرحة العظيمة

لشعوري بالارتياح، لكنني انتبهت الآن لدلالتها: «في السجن». البروفيسور في السجن! كان هذا هو معنى اختفائه الغريب في وودبريدج. لا بد أن ذلك الرجل الغاشم الضئيل شيرلي قد اتصل هاتفيًّا من ريدفيلد، وعندما جاء البروفيسور إلى مصرف وودبريدج لصرف ذلك الشيك، ألقوا القبض عليه. لهذا دفعوني إلى غرفة الجلوس تلك المصنوعة من خشب الماهوجني. لا بد أن أندرو وراء هذا. العجوز الأحمق المخبول! احتقن وجهي من الغضب والإهانة.

لم أعرف قَطُّ ما يعنيه أن تكون غاضبًا حقًّا. شعرت بوخز في دماغي. البروفيسور في السجن! الرجل الضئيل الشهم الشجاع، محبوس مع المتشردين واللصوص المتسللين، مشتبه في كونه محتالًا... كما لو أنني لا أستطيع الاعتناء بنفسي! ما الذي كانوا يظنونه، على أي حال؟ خاطف؟

قررت على الفور أن أعود إلى بورت فيجور من دون تأخير. إذا كان أندرو قد طالب بحبس البروفيسور، فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بتهمة الاحتيال عليَّ. بالتأكيد لا يمكن أن يكون ذلك لكونه أدمَى أنفه على الطريق من شيلبي. وإذا ظهرت أنا لإنكار التهمة، فسوف يتعين عليهم بالتأكيد إطلاق سراح السيد ميفلين.

أعتقد أنني كنت أتحدث إلى نفسي داخل كشك بيج. على أي حال، ظهر عامل الإسطبل في هذه اللحظة تحديدًا، وبدت عليه الحيرة الشديدة حينما رآني بادية الانفعال بوجه محمر، وأنا أتحدث مع حصان! سألته عن موعد القطار التالي المتوجه إلى بورت فيجور.

قال:

- حسنًا، يا سيدتي، يقولون إن جميع القطارات المحلية عالقة حتى إزالة الحطام في ويلدون. بما أن اليوم هو الأحد، فلا أعتقد أنكِ ستجدين أي قطار من هنا حتى صباح الغد.

فكرت في الأمر. لم تكن المسافة بعيدة جدًّا إلى بورت فيجور. يمكن لسيارة قديمة من المرآب المحلي أن تعود بي إلى هناك في غضون ساعتين على الأكثر. لكن بطريقة ما، بدا أنه من الأنسب الذهاب لإنقاذ البروفيسور بعربة كتبه، حتى لو استغرق الأمر وقتًا أطول للوصول إلى هناك. في الحقيقة، بينما كنت غاضبة وأشعر بالإهانة عند التفكير في كون أندرو وضعه في السجن، لكنني لم أستطع، في أعمق أعماقي، سوى الشعور بالامتنان نوعًا ما. ماذا لو أنه كان في الحادث؟ لقد لعب حكيم ريدفيلد دور العناية الإلهية، في نهاية المطاف. وإذا انطلقت بعربة الكتب على

الفور، فسيمكنني الوصول إلى بورت فيجور... حسنًا، بحلول صباح يوم الاثنين على أي حال.

فوجئ الناس الطيبون في فندق موس حقًّا من السرعة التي أنهيت بها غدائي، لكنني لم أقدِّم لهم أي تفسيرات. الرب يعلم أن رأسي امتلأ بأفكار أخرى، وأن صلصة التفاح كانت أشبه بـ«الأسبست». كما تعلم، فإن المرأة تقع في الحب مرة واحدة فقط في حياتها، وإذا تأخر ذلك حتى تكاد تشارف الأربعين من العمر... حسنًا، إنه يتمكن من المرء! كما ترى، لم أكتسب حصانة ضده، حتى من خلال الغزل الذي تلقيته لكوني فتاة. بدأت العمل مربيةً حين كنت مجرد صبية، ولا تسنح للمربية فرص كثيرة لتكون لعوبًا. لذا عندما أتى الآن، أصابني بشدة. تعثر المرأة على نفسها حينها، عندما تقع في الحب. لا يهمني ما إذا كانت بالفعل عجوزًا أو سمينة أو تفتقر إلى الجمال أو مملة. فهي تشعر بذلك الاختلاج البسيط تحت ضلوعها، وتسقط من الشجرة كثمرة برقوق ناضجة. لم أكترث بما إذا كنَّا أنا وروجر ميفلين نشكِّل زوجًا غريبًا مثل الدكتور جونسون العجوز وزوجته. كنت أعرف شيئًا واحدًا فقط: أنني عندما أرى ذلك الشيطان الأصهب الضئيل مرة أخرى، فسوف أكون ملكه تمامًا، إذا قَبِلَ هو بي. هذا

هو السبب في كون فندق موس القديم في باث مقدسًا على الدوام بالنسبة إليَّ. هناك علمت أن الحياة لا تزال تحمل لي شيئًا جديدًا، شيئًا أفضل من خبز بسكويت «الشمبلين» لأندرو.

* * *

كان يوم الأحد واحدًا من تلك الأيام المشمسة الهادئة التي ننعم بها نحن سكان نيو إنجلاند في شهر أكتوبر. يبدأ العام حقًّا في شهر مارس، كما يعلم كل مُزارع، وبحلول نهاية سبتمبر أو بداية أكتوبر، يصل الموسم إلى أقصى ذروته المثالية الناضجة. هناك بضعة أيام يبدو فيها العالم معلقًا في سكون، في صمت حالم عذب، عند تمام نضج الفاكهة، قبل أن يبدأ الذبول. لا أملك أي كلمات (مثل أندرو) لوصف ذلك، لكنني لاحظته في كل خريف منذ سنوات. أذكر أنه في بعض الأحيان في المزرعة، كنت أتكئ على كومة الحطب للحظة قبل العشاء مباشرةً لمشاهدة لحظات غروب الشمس الأرجوانية تلك في أكتوبر. كنت أسمع الرنين الحاد لجرس الآلة الكاتبة الصغيرة الخاصة بأندرو وهو يعمل في غرفة مكتبه، ثم أحاول أن أبتلع في أعماقي الجمال والحنين الكامن في ذلك كله، وأُهرع عائدة إلى هرس البطاطس.

سحبت بيج المكتبة المتنقلة عبر الطريق الخلفي، وتردد صوتها على نحو بسيط مبهج. أعتقد أنها كانت تعلم أننا عائدون إلى البروفيسور. انطلق بوك بسرعة على جانب الطريق، وأتاح لي هذا الكثير من الوقت للتفكير. في العموم، كنت سعيدة، إذ كان لديَّ الكثير لأفكر فيه. المغامرة التي بدأت بوصفها مجرد مزحة أو نزوة، أصبحت الآن بالنسبة إليَّ جوهر الحياة ذاتها. كنت غارقة في الخيال على ما أعتقد، ورومانسية مثل دجاجة صغيرة، لكن أقسم بروح جورج إليوت إنني أشفق على المرأة التي لا تسنح لها الفرصة أبدًا للاستغراق في الخيال. كان ميفلين في السجن، أجل، لكن كان من الممكن أن يكون قد مات، وبات لا يمكن التعرف عليه! رفض قلبي أن يصير حزينًا تمامًا. كنت في طريقي لتخليصه من محبسه الكريه. فكرت أنه يبدو أن هناك صلة تربط بيني وبين هذا الفصل من العام، عندما رأيت زهور عصا الذهب تتحول إلى اللون البرونزي وتتدلى على طول الطريق. هأنذا، في ذروة نضج الأنوثة، على مشارف انحداري إلى الخريف، ويا للمفاجأة! برحمة من الرب، عثرت على رَجُلي، وسيدي. لمسني بحماسته وشجاعته. لم أكترث بما يحدث لأندرو، أو لمزرعة سابين، أو لأي شيء آخر في العالم. هنا موقدي ومنزلي، في المكتبة

المتنقلة، أو في أي مكان قد يستقر فيه روجر. حلمت بعبور جسر بروكلين معه عند الغسق، ومشاهدة ناطحات السحاب المطبوعة على السماء المشتعلة. كنت أؤمن بتسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية. الحبر هو الحبر، حتى لو كُتب على الزجاجة «سائل تجاري». لم أحاول التعامي عن حقيقة كوني واقعة في الحب. في الواقع، لقد ابتهجت لذلك. بينما تدحرجت المكتبة المتنقلة عبر الطريق، وتساقطت أوراق شجر القيقب القرمزية وهي تدور بلطف في سماء أكتوبر الزرقاء، أَلَّفت ترنيمة من نوع ما، أطلقت عليها:

ترنيمة لامرأة في منتصف العمر (سمينة)
وقعت في الحب

يا إلهي، أشكرك يا مَن أرسلت هذه المغامرة العظمى
في طريقي!
ممتنة أنا لخروجي من أرض العنوسة البور،
ولرؤية عظمة حب أكبر من نفسي.
أشكرك لأنك علَّمتني أن الخلط والعجن
والخبز ليس هو كل ما تحمله لي الحياة. حتى لو لم
يحبني، يا إلهي، فسأكون دومًا له.

أخذت أدندن لنفسي بثرثرة ما من هذا القبيل، عندما صادفت بالقرب من وودبريدج سيارة كبيرة لامعة عالقة على جانب الطريق. تحت شجرة، جلس عدة أشخاص بدا من الواضح أنهم أذكياء وميسورون، في حين أَوْلَى سائقهم اهتمامه لإطار السيارة. كنت منغمسة بشدة في أفكاري الخاصة، لدرجة أنني أعتقد أنني كنت سأمرُّ بهم من دون أن أعيرهم كثيرًا من الاهتمام، لكنني تذكرت فجأة مبدأ البروفيسور: التبشير بعقيدة الكتب في جميع الأوقات. بصرف النظر عن كونه يوم الأحد من عدمه، ظننت أن أفضل طريقة يمكنني تكريم ميفلين من خلالها هي التصرف وفقًا لمبدئه الخاص. توقفت على جانب الطريق.

لاحظت أن الناس يلتفتون بعضهم إلى بعض بنوع من المفاجأة، ويتهامسون بشيء ما. كان هناك رجل مسن له وجه نحيف مجهد، وامرأة بدينة بدا من الواضح أنها زوجته، وفتاتان صغيرتان، ورجل يرتدي ملابس الجولف. بطريقة ما، بدا وجه الرجل الأكبر سنًّا مألوفًا. تساءلت عمَّا إذا كان أحد زملاء أندرو من الأدباء الذي سبق أن رأيتُ صورته من قبل.

وقف بوك بجانب العجلة ولسانه الطويل الملتف يتحرك

فوق أسنانه دخولًا وخروجًا. ترددت للحظة، وأنا أفكر في كيفية إعداد هجومي، عندما صاح الرجل المسن:

- أين البروفيسور؟

بدأت أدرك أن ميفلين كان بالفعل شخصية عامة.

قلت:

- يا إلهي! هل تعرفه أنت أيضًا؟

قال:

- حسنًا، أعتقد ذلك. لقد أتى لزيارتي في الربيع الماضي بشأن تخصيص مبلغ مالي للمكتبات المدرسية، ورفض الرحيل حتى وعدت بتنفيذ ما يريده! قضى الليلة معنا، وتحدثنا عن الأدب حتى الساعة الرابعة صباحًا. أين هو الآن؟ هل استوليتِ على المكتبة المتنقلة؟

قلت:

- في الوقت الحالي فقط. إن السيد ميفلين في السجن في بورت فيجور.

أطلقت السيدات صيحات صغيرة من الدهشة، أما الرجل نفسه (خمنت أنه مفوض بإحدى اللجان المدرسية، أو شيء من هذا القبيل)، فلم يبدُ أقل دهشة.

قال:

- في السجن! لماذا، بحق السماء؟ هل ضرب أحدهم لقراءة أعمال نيك كارتر وبيرثا م. كلاي؟ هذه هي الجريمة الوحيدة التي من المحتمل أن يرتكبها.

قلت:

- من المفروض أنه احتال عليَّ واستولى على أربعمائة دولار، وقد تسبَّب شقيقي في حبسه. لكنه في الواقع لن يخدع دجاجة حتى ويستولي منها على بيضة طازجة. لقد اشتريت المكتبة المتنقلة بمحض إرادتي. أنا في طريقي إلى بورت فيجور الآن لإطلاق سراحه. ثم سأطلب منه أن يتزوجني، إذا أراد ذلك، على الرغم من أنها ليست سنة كبيسة، يحق فيها للمرأة أن تطلب من الرجل الزواج منها كما جرت العادة.

نظر إليَّ ووجهه النحيف الذي خطَّته التجاعيد يعتمل بالود. كان رجلًا حسن المظهر، ذا شعر قصير أشيب مصفف يكشف عن جبهة عريضة مُسمرَّة. لاحظت بدلته الأنيقة الداكنة، والياقة الناصعة. بدا من الواضح أن هذا رجل ذو حسب.

قال:

- حسنًا، يا سيدتي، أي صديق للبروفيسور هو صديق لنا.

(تدخلت زوجته والفتاتان في الحديث، وأبدينَ موافقتهن).

واصل قائلًا:

- إذا أردتِ أن نُقلَّكِ بسيارتنا لتسريع مهمتكِ، فأنا متأكد أن بوب هنا ستسره قيادة المكتبة المتنقلة إلى بورت فيجور. سرعان ما يُصلِح إطار سيارتنا.

وافق الشاب بحماس، لكن كما قلت من قبل، كنت عازمة على العودة بالمكتبة المتنقلة بنفسي. ظننت أن رؤية معبده الخاص ستكون أفضل بلسم لتجربة ميفلين المزعجة. لذلك رفضت العرض، وشرحت الموقف على وجه أوضح.

قال:

- حسنًا، إذن دعيني أساعد بأي طريقة في وسعي.

أخرج بطاقة من محفظته، وخربش عليها شيئًا ما. قال:

- عندما تصلين إلى بورت فيجور، أظهري هذا عند السجن، ولا أعتقد أنكِ ستواجهين أي مشكلة، فأنا أعرف الناس هناك.

لذا، بعد مصافحة الجميع، مضيت في طريقي مرة أخرى،

وقد أبهجني للغاية هذا الحادث الودي البسيط. لم أفكر في النظر إلى البطاقة التي أعطاني إياها، إلا بعد أن قطعت شوطًا في الطريق، ثم أدركت لماذا بدا وجه الرجل مألوفًا. دُوِّن على البطاقة بكل بساطة:

رالي ستون ستافورد
القصر التنفيذي، دارلينجتون.

كان حاكم الولاية!

الفصل الرابع عشر

لم أستطع منع نفسي من الضحك، عندما وصلت المكتبة المتنقلة أعلى قمة التل، ورأيت النهر من بعيد مرة أخرى. كم بدا هذا الأمر برمته مختلفًا عن خيالاتي الطفولية عن الرومانسية! لطالما كانت هذه سمة من سمات حياتي: امتلأت بالأشياء البسيطة المبتذلة، والهزلية في كثير من الأحيان، على الرغم من عزمي الشديد على أن أكون رفيعة الثقافة وجادة. مع هذا، فقد أوشكت على البكاء عندما فكرت في الحادث المأساوي في ويلدون، والقلوب المثقلة بالحزن التي لا بد أن تكون في حالة حداد. تساءلت عمَّا إذا كان الحاكم عائدًا من ويلدون الآن، بعد الأمر بإجراء تحقيق.

كتب على بطاقته:

> الرجاء إطلاق سراح ر. ميفلين على الفور، ومعاملة هذه السيدة بكل احترام.

لذلك لم أتوقع أي مشكلات محددة. جعلني هذا أكثر تلهفًا على المضي قدمًا، وبعد عبور العبَّارة، توقفنا في وودبريدج لمدة تكفي لتناول العشاء فحسب. قدت العربة متجاوزة المصرف حيث انتظرت في غرفة الجلوس، وكنت سأسعد لو سنحت لي الفرصة لجلد ذلك الصراف الضئيل الحقير. تساءلت كيف نقلوا البروفيسور إلى بورت فيجور، وفكرت بسخرية أنه ألمح صباح ذلك السبت فقط باصطحاب المتشردين إلى السجن نفسه. مع ذلك، فإنه لا شك لديَّ في أن روحه الفلسفية تعاملت مع الموقف على أفضل نحو ممكن.

بدت وودبريدج ساكنة كأي بلدة ريفية في ليلة الأحد. في الفندق الصغير الذي تناولت فيه العشاء، لم يكن هناك موضوع للحديث سوى الحادث. لكن عندما دفعت فاتورتي، لاحظ المالك المكتبة المتنقلة في الفناء.

سأل وفي عينيه نظرة خبيثة:

- هذه هي العربة التي باعكِ إياها ذلك البائع المتجول، أليس كذلك؟

قلت باقتضاب:

- بلى.

ألمح قائلًا:

- أظنكِ عُدتِ لمقاضاته؟ أقول لكِ إن ذلك الرجل شيطان، صدقيني. عندما حاول الشريف أن يلبسه الأصفاد، لكمه في عينه وكاد يحطم فكه. يا له من مقاتل، بالنسبة إلى كونه قزمًا!

فكرت: «مقاتلي الضئيل الشجاع»، وتخضب وجهي فخرًا.

بدا طريق العودة إلى بورت فيجور بلا نهاية. شعرت بالتوتر بعض الشيء، عندما تذكرت المتشردين في محجر برات، لكن في وجود بوك بجواري على المقعد، اعتقدت أنه من الجبن الشعور بالذعر. تردد صوت العربة بهدوء خلال سيرنا وسط الظلام بين ممرات أشجار الصنوبر الحالكة، حيث سار شريط من ضوء النجوم كالوشاح فوقنا، ثم على التلال المتماوجة المطلة على الماء. كان هناك قمر أيضًا، لكنني كنت منهكة على نحو قاتل، ووحيدة، وأشتاق فقط لرؤية رَجُلي الضئيل ذي اللحية الصهباء. غلب الإرهاق بيج أيضًا، وسارت متثاقلة ببطء. لا بد أن منتصف الليل حل، قبل أن نرى الأضواء الحمراء والخضراء لإشارات السكك الحديدية، وعرفت أن بورت فيجور باتت قريبة.

قررت أن أعسكر حيث كنت، وقدت بيج إلى حقل على جانب الطريق، وربطتها إلى سياج، وأخذت الكلب معي داخل العربة. كنت أكثر تعبًا من أن أخلع ملابسي. ارتميت على الفراش، وسحبت البطانيات فوقي. في أثناء قيامي بذلك، سقط شيء ما خلف الفراش بصوت اصطدام حاد. كان غليونًا منسيًّا للبروفيسور، مصنوعًا من عرانيس الذرة، مسودًّا وعليه آثار السخام. وضعته أسفل وسادتي، وخلدت إلى النوم.

يوم الاثنين، السابع من شهر أكتوبر. لو كانت هذه رواية عن فتاة ما ساحرة ورشيقة ذات عينين واسعتين، لكَم كان سيتعين عليَّ وصف المشاعر التي استيقظتُ بها صباح اليوم التالي بطريقة مختلفة! لكن بما أن هذه ليست سوى بضع صفحات من حياة ربة منزل بدينة من نيو إنجلاند، فيجب أن أكون صريحة. استيقظت شاعرة بالفتور وتعكر المزاج. كان اليوم غائمًا وباردًا: تصاعدت من الخليج نُتَف خافتة من الضباب، وترددت في الجو صيحات النوارس الكئيبة. شعرت بالتعاسة، والانزعاج، و - أجل - الخجل. كنت أتوق بحرارة إلى أن أُهرع نحو البروفيسور، وأحتضنه بين ذراعيَّ، وأن أكون بمفردي معه في المكتبة المتنقلة، ونحن نسير عبر أحد الطرق الجانبية المشمسة. لكنني

تذكرت كلماته. لم أكن أمثِّل شيئًا بالنسبة إليه. ماذا لو لم يكن يحبني في نهاية المطاف؟

مشيت عبر حقلين، ونزلت إلى الشاطئ حيث كانت أمواج صغيرة تضرب الحصى. غسلت وجهي ويدَي بالماء المالح، ثم عدت إلى المكتبة المتنقلة وأعددت بعض القهوة بالحليب المكثف. قدمت لبيج وبوك إفطاريهما، ثم ربطت بيج إلى العربة مرة أخرى، وشعرت بالتحسن. عند دخولي البلدة، اضطررت إلى الانتظار عند تقاطع السكة الحديد، بينما مر قطار مخصص لإخلاء القضبان من الحطام، عائدًا في طريقه من ويلدون. كان ذلك يعني أن الخط صار مفتوحًا مرة أخرى. راقبت الرجال المتسخين على متن العربات، وارتعدت عند التفكير فيما كانوا يفعلونه.

يقع سجن مقاطعة فيجور على بُعد ميل واحد تقريبًا من البلدة، وهو ثكنة حجرية قبيحة رمادية، يحيطه جدار مرتفع يعلوه سلك شائك. شعرت بالامتنان لأن الوقت لا يزال مبكرًا إلى حد ما في الصباح، ومررت بين الشوارع من دون رؤية أي شخص أعرفه. أخيرًا، وصلت إلى البوابة في جدار السجن. هنا اعترض طريقي حارس من نوع ما، وقال:

- لا يمكنكِ الدخول، يا امرأة. كان اليوم المخصص

للزوار هو أمس، ولا مزيد من الزيارات حتى الشهر المقبل.

قلت:

- يجب أن أدخل. لديكم رجل هناك بتهمة باطلة.

بصق في منتصف الطريق، وأجاب بهدوء:

- هذا ما يقوله الجميع. لن تصدقي أن أيًّا من نزلائنا يتعين عليه الوجود هنا، إذا سمعتِ أصدقاءهم يتحدثون.

أريته بطاقة الحاكم ستافورد. أثار ذلك إعجابه بدرجة كبيرة، ودخل كشك حراسة في الجدار، ليقوم باتصال هاتفي على ما أعتقد.

سرعان ما عاد ثانيةً:

- يقول الشريف إنه سيراكِ، يا سيدتي، لكن عليكِ أن تتركي هذه العربة الرائعة خلفكِ.

فتح بابًا صغيرًا في البوابة الحديدية الضخمة، وسلمني إلى رجل آخر بالداخل. قال:

- خذ هذه السيدة إلى الشريف.

لا بد أن بعض سجناء مقاطعة فيجور تعلموا كيف يصبحون بستانيين مهرة، إذ كانت الأرض في حالة جيدة بالتأكيد.

بدا العشب أخضر ومقصوصًا على نحو مرتب، وكانت هناك أحواض زهور تقليدية بأشكال فائقة القبح. رأيت من بعيد مجموعة من الرجال يرتدون بدلات عمل مخططة، يعملون على إصلاح طريق. قادني الدليل إلى كوخ فاتن على أحد جوانب المبنى الرئيسي. كان هناك طفلان يلعبان بالخارج، وأذكر أنني فكرت أن المكان بين جدران السجن كان غريبًا بالتأكيد لتربية الصغار.

لكن كان لديَّ أشياء أخرى لأفكر فيها. نظرت إلى ذلك المبنى الرمادي الكئيب، حيث يوجد البروفيسور خلف إحدى تلك النوافذ الصغيرة ذات القضبان. كان من المفروض أن أشعر بالغضب حيال أندرو، لكن بطريقة ما، بدا الأمر برمته كأنه حلم من نوع ما. بعد ذلك، اصطُحِبتُ إلى ردهة كوخ الشريف، وبعد دقيقة كنت أتحدث إلى رجل ضخم له عنق كالثور وشارب رسمي.

قلت:

- لديك سجين هنا اسمه روجر ميفلين؟

- يا سيدتي العزيزة، لا أحتفظ في ذهني بقائمة بجميع نزلائي. إذا أتيتِ إلى المكتب، فسنبحث في السجلات.

أريته بطاقة الحاكم، فتناولها وظل يتأملها كما لو أنه يتوقع

رؤية الرسالة المدونة عليها وهي تتبدل أو تتلاشى. سرنا عبر شريط من العشب إلى مبنى السجن، وهناك، في مكتب كبير خالٍ، راجع فهرس البطاقات.

قال:

- ها نحن ذا: روجر ميفلين، السن ٤١ عامًا، الوجه بيضاوي، البشرة محمرة، الشعر أصهب، لكن لا يوجد كثير منه، الطول ٦٤ بوصة، الوزن من دون ملابس ١٢٠، وحمة...

قلت:

- دعك من ذلك، هذا هو الرجل. ما سبب وجوده هنا؟
- إنه هنا بسبب عدم تقديم الكفالة، في انتظار المحاكمة. التهمة هي محاولة الاحتيال على هيلين ماكجيل، العانس، البالغة من العمر...

قلت:

- هراء! أنا هيلين ماكجيل، ولم يقم الرجل بأي محاولة للاحتيال عليَّ.
- سُجِّلت التهمة وقُدِّمتْ مذكرة من قِبَل شقيقكِ، أندرو ماكجيل، نيابةً عنكِ.

- لم أخوِّل أندرو قَطُّ بالتصرف نيابةً عني.

- إذن هل ستسحبين التهمة؟

قلت:

- بكل تأكيد. أشعر برغبة قوية في تسجيل اتهام مضاد لأندرو، والمطالبة بالقبض عليه هو.

قال الشريف:

- كل هذا مخالف للقواعد بشدة، لكن إذا كان السجين معروفًا للحاكم، فأعتقد أنه لا يوجد بديل. لا يمكنني إلغاء المذكرة من دون تعهد رسمي من نوع ما. وفقًا لقوانين هذه الولاية، يجب أن يتأكد الأقرباء من حُسن سلوك السجين بعد الإفراج عنه، ولا يوجد أقرباء...

قلت:

- بالتأكيد يوجد! أنا قريبة السجين.

قال:

- ماذا تقصدين؟ ما صلة القرابة التي تربطكِ بروجر ميفلين هذا؟

- أنتوي الزواج منه بمجرد أن أتمكن من إخراجه من هنا.

انفجر في نوبة من الضحك الصاخب، وقال:

- أعتقد أنه لا يوجد ما يمكن أن يقف عائقًا أمامكِ.

ثبت بطاقة الحاكم إلى ورقة زرقاء على المكتب، وشرع يملأ بعض الفراغات.

واصل قائلًا:

- حسنًا، يا آنسة ماكجيل، لا تأخذي أكثر من واحد من سجنائي، وإلا فسأفقد وظيفتي. سيصطحبكِ السجان إلى الزنزانة بالأعلى. أنا آسف للغاية. يمكنكِ رؤية أن ذلك الخطأ لم يكن ذنبنا. هل يمكنكِ أن تخبري الحاكم بذلك، عندما ترينه؟

تبعت الحارس أعلى طابقين من السلالم الحجرية العارية، وعبر ممر طويل مطلي باللون الأبيض. كان مكانًا مروعًا: صفوف وصفوف من الأبواب الثقيلة، بها نوافذ صغيرة ذات قضبان. لاحظت أن كل باب له مقبض بأرقام كالخزنة، وشعرت بركبتيَّ تصطكان بقوة.

لكن في الواقع، لم يكن الأمر عاطفيًّا بشدة كما توقعت. توقف السجان عند نهاية ممر طويل. أدار القرص الذي أصدر تكتكة، في حين انتظرت أنا يعتريني شيء من الرعب. أعتقد أنني توقعت رؤية البروفيسور برأس حليق (لم يكن لديهم الكثير مما يمكنهم حلاقته من رأسه،

يا للمسكين!)، وبدلة مخططة من قماش الأشرعة، وكرة وسلسلة حول كاحله.

انفتح الباب بقوة. كانت هناك غرفة صغيرة ضيقة ونظيفة، بها فراش منخفض قابل للطي، وتحت النافذة ذات القضبان، طاولة تناثرت عليها الأوراق. كان البروفيسور بملابسه الخاصة منشغلًا بالكتابة، وظهره نحوي. ربما ظن أنه مجرد حارس معه طعام، أو ربما حتى لم يسمع المقاطعة. سمعت خربشات قلمه وهو يكتب بهمة. كان عليَّ أن أعرف أنك لن ترى أي سلوك بطولي أبدًا من ذلك الرجل! ثِق بأنه سيستفيد من الوضع على أفضل نحو ممكن!

قال البروفيسور من دون أن يلتفت:

- أريد سمكًا، وكأسًا من «الشيري»، رجاءً يا جيمز.

بدا من الواضح أن الحارس تبادل معه المزاح من قبل، وأطلق ضحكة شديدة.

قال:

- هناك سيدة أتت لزيارة معاليك.

استدار البروفيسور، وشحب وجهه تمامًا. لأول مرة منذ معرفتي به، بدا عاجزًا عن الحديث.

تلعثم قائلًا:

- آنسة ماكجيل، أنتِ حقًّا فاعلة خير. أنا أسلك سلوك جون بنيان، أرأيتِ؟ أكتب وأنا في السجن. أخيرًا، بدأت كتابي بالفعل. كما وجدت أن الرفاق هنا لا يعرفون أي شيء على الإطلاق عن الأدب. لا توجد حتى مكتبة في المكان.

على الرغم من جميع محاولاتي، لم أستطع التعبير عن الحنان الكامن في قلبي مع وجود ذلك السجان الضخم واقفًا خلفنا.

بطريقة ما، شققنا طريقنا إلى الطابق السفلي، بعد أن جمع البروفيسور أوراق مخطوطته. كانت قد وصلت بالفعل إلى حجم هائل، إذ إنه كتب خمسين صفحة خلال الست والثلاثين ساعة التي قضاها في السجن. في المكتب، تعيَّن علينا توقيع بعض الأوراق. اعتذر الشريف بشدة إلى ميفلين، وعرض عليه توصيله إلى البلدة بسيارته، لكنني أوضحت أن المكتبة المتنقلة تنتظر عند البوابة. التمعت عينا البروفيسور عند سماعه ذلك، لكنني اضطررت إلى الإسراع بالابتعاد به عن جدل بشأن وضع الكتب الجيدة في السجون. سار معنا الشريف إلى البوابة، وصافحنا هناك مرة أخرى.

أطلقت بيج صهيلًا خافتًا عندما اقتربنا منها، وربَّت البروفيسور على أنفها الناعم. شد بوك سلسلته في نوبة من الفرح. أخيرًا، أصبحنا بمفردنا.

الفصل الخامس عشر

لم أعرف على الإطلاق كيف حدث ذلك تحديدًا. بدلًا من العودة عبر بورت فيجور، انعطفنا إلى طريق جانبي يؤدي إلى أعلى التل، وعبر المرج حيث جاء الهواء منعشًا وعذبًا من البحر. جلس البروفيسور في صمت تام، وهو يتلفت حوله. كان هناك بستان من أشجار «البتولا» أعلى التل، وتراقص ضوء الشمس على جذوعها الصقيلة.

قال بهدوء:

- إنه شعور جيد أن أخرج ثانيةً. لا يمكن أن يكون الحكيم مولعًا بالهواء الطلق كما تشير كتبه، وإلا ما كان مستعدًّا بشدة للزج بالمرء في السجن. ربما أدين له بلكمة أخرى على أنفه بسبب ذلك.

أخشى أن صوتي كان يرتجف، وقلت:

- أوه، روجر، أنا آسفة. أنا آسفة.

لم تكن تلك بلاغة فائقة، أليس كذلك؟ بعد ذلك، بطريقة أو بأخرى، أحاطني بذراعه.

قال:

- هيلين، هل تقبلين الزواج مني؟ أنا لست ثريًّا، لكنني ادخرت ما يكفي للعيش. ستكون المكتبة المتنقلة لدينا دومًا، وسنذهب هذا الشتاء للعيش في بروكلين، وتأليف الكتاب. وسنتجول مع بيج، ونلقي الخطب عن حب الكتب، وحب البشر. هيلين، أنتِ ما أحتاج إليه تمامًا، ليباركِكِ الرب. هل ستأتين معي، وتجعلينني أسعد بائع كتب في العالم؟

لا بد أن بيج اندهشت من طول الوقت الذي قضته في قضم العشب من دون إزعاج. أعرف أننا جلسنا أنا وروجر من دون اهتمام بالوقت. وحينما أخبرني أنه منذ عصر أول يوم قضيناه معًا، عقد العزم على أن يفوز بي، إما عاجلًا وإما آجلًا، بتُّ المرأة الأكثر فخرًا في نيو إنجلاند. أخبرت روجر عن الحادث المروع، وعذاب قلقي. أعتقد أن الحادث هو ما جعل كلينا نميل إلى مسامحة أندرو.

تناولنا غداءً خفيفًا معًا، هناك على التلال فوق الخليج.

من خلال قطع طريق مختصر عبر التلال، وصلنا إلى طريق شيلبي من دون النزول إلى بورت فيجور مرة أخرى. سحبتنا بيج نحو جرينبراير، وتبادلنا الحديث خلال الطريق.

ربما كان أفضل ما في الأمر هو أن رذاذًا من المطر البارد بدأ يتساقط بينما كنا نتحرك عبر طريق التل. غطى البروفيسور - كما ما زلت أسميه، بحكم العادة - مقدمة العربة بستار مطاطي. قفز بوك إلى الداخل، وتكور عند ساق سيده. أخرج روجر غليونه المصنوع من عرناس الذرة، وجلست بالقرب منه. سرنا في طريقنا في العتمة التي أخذت تحل، ونحن ثلاثي سعيد - أو رباعي، إذا أضفنا بيج السمينة المرحة العجوز - كأي شخص آخر على هذا الكوكب. انتهى الصيف، ولم نعد شبابًا، لكن كانت هناك أشياء عظيمة في انتظارنا. استمعت إلى قطرات المطر، وإلى الصرير المنتظم الذي يصدره محور عجلات المكتبة المتنقلة. فكرت في «مختاراتي» من أرغفة الخبز، وتعهدت بخَبز مليون رغيف آخر، إذا أراد روجر مني ذلك. تجاوز الوقت موعد العشاء عندما وصلنا إلى جرينبراير. اقترح روجر أن نسلك طريقًا أقصر من شأنه أن يقودنا إلى ريدفيلد في وقت أسرع، لكنني ترجيته أن نذهب عن طريق

شيلبي وجرينبراير، تمامًا كما أتينا من قبل. لم أُخبِره لماذا أردت ذلك. وعندما توقفنا أخيرًا أمام متجر كيربي عند مفترق الطريق، كان المطر يهطل بغزارة، وبتنا مستعدَّين لننال قسطًا من الراحة.

قال روجر:

- حسنًا، يا حبيبتي، هل نذهب لنرى نوعية الغرف المتاحة في هذا الفندق؟

قلت:

- يمكنني التفكير فيما هو أفضل من ذلك. لنذهب إلى السيد كين، ونطلب منه تزويجنا. بعد ذلك، يمكننا العودة إلى مزرعة سابين، ونمنح أندرو مفاجأة.

قال روجر:

- قسمًا بهايمن، أنتِ محقة!

لا بد أن الساعة كانت العاشرة، حينما انعطفنا عند البوابة الحمراء لمزرعة سابين. توقف المطر عن الهطول، لكن العجلات خاضت في الوحل والماء عند كل منعطف. كان النور مضاءً في غرفة الجلوس، وتمكنت من رؤية أندرو عبر النافذة، منحنيًا على طاولة عمله. ترجلنا، شاعرَين بتصلب العضلات والألم من أثر الرحلة

الطويلة. رأيت في وجه روجر مزيجًا مضحكًا من الصرامة والفكاهة.

همس قائلًا:

- حسنًا، ها نحن ذاهبان لمفاجأة الحكيم!

سرنا بحذر وسط البِرَك، وقرعنا الباب، فظهر أندرو حاملًا مصباحًا في إحدى يديه، ونخر عندما رآنا.

قال روجر:

- دعني أقدم لك زوجتي.

قال أندرو:

- حسنًا، يا لها من مفاجأة!

لكن أندرو ليس شريرًا تمامًا كما صورته. ما إن يقتنع بخطأ تفكيره حتى يصبح متحمسًا للصلح بدرجة تكاد تكون مثيرة للشفقة. لا أتذكر سوى ملاحظة واحدة فقط من المحادثة اللاحقة، لأنني فزعت بشدة من حالة كل شيء في مزرعة سابين، إلى درجة أنني شرعت في ترتيب المنزل على الفور. مع ذلك، بمجرد أن أُويت المكتبة المتنقلة في الحظيرة، والحيوانات تحت غطاء، جلس الرجلان بجوار الموقد للحديث عن الأمور.

قال أندرو:

- ما رأيك في أن تفعل ما تريد مع زوجتك، فهي تفوق قدرتي على الاحتمال؟ لكنني أرغب في شراء تلك المكتبة المتنقلة.

قال البروفيسور:

- أبدًا!

المؤلف

كريستوفر دارلينجتون مورلي (١٨٩٠–١٩٥٧) كان صحفيًّا وروائيًّا وكاتب مقالات وشاعرًا أمريكيًّا. والِده عالِم رياضيات، ووالدته موسيقية وشاعرة، اكتسب منها حبه للأدب. بدأ الكتابة بينما كان لا يزال في الكلية، وعمل على تحرير مجلة الكلية، وأسهم فيها بمقالات. وعقب تخرجه في جامعة أكسفورد، بدأ مسيرته الأدبية في دار نشر دابلداي، حيث عمل في مجال الدعاية وقراءة المخطوطات التي ترِد إلى الدار.

حقق مورلي النجاح في العديد من المجالات على مر السنين، واكتسب شعبية بفضل أعمدته الأدبية في صحيفة «نيويورك إيفيننج بوست» ومجلة «ذا ساترداي ريفيو أوف ليترتشر»، إلى جانب مجموعات من المقالات والأعمدة المتنوعة. ألَّف مورلي أكثر من ١٠٠ رواية وكتاب مقالات

ومجلدات شعرية، وما زال مشهورًا حتى اليوم بسبب روايته الجميلة «المكتبة المتنقلة»، التي صدرت في عام ١٩١٧، والتي لا تزال تُطبع إلى يومنا هذا وتسعِد العديد من القراء.

المترجمة

إيناس التركي؛ مترجمة مصرية، وُلدت في القاهرة عام ١٩٧٣. تخرجت في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها في كلية الآداب، جامعة عين شمس.

ترجمت لدار الكرمة رواية «جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس» لماري آن شيفر وآني باروز، ورواية «خلف هذه الأبواب» لروث وير، وكتاب «عندما تحب النساء أكثر مما ينبغي: أن تعيشي في انتظار أن يتغير» لروبين نورود. من أهم ترجماتها الأخرى: رواية «مون تايجر» للبريطانية بينيلوبي لايفلي، ورواية «الحارس الأخير للقاهرة القديمة» للأمريكي مايكل ديفيد لوكاس، ورواية «الشرطي الثالث» للأيرلندي فلان أوبراين.



لا تدع حجم هذه الرواية الصغير يخدعك... قصة بائع كتب متجول والحب غير المتوقع الذي يجده عندما يبيع مكتبته المتنقلة مليئة بالمشاعر المؤثرة.

روجر ميفلين بائع كتب متجول يسافر عبر ريف نيو إنجلاند مع مكتبته المتنقلة في مهمة تنويرية، رجل عابث وحكيم وهمجي ونبيل، بفلسفته الفريدة وعينيه الساطعتين، وبفرحته المعدية بالكتب والمؤلفين يعرض قلب وروح الكتب، لكن عانسًا مفعمة بالحيوية، ساخطة على حياتها، قد يكون لها يد في تغيير كل ذلك.

إن خيوط هذه المغامرة مليئة بمشاجرات نارية على الطريق، وهروب بطولي من الموت، وألذ ولائم في تاريخ فن الطبخ الأمريكي... وقصة حب نادرة.



ISBN 978-977-86783-8-3

